رواية
شرق
جهنم
فريق
متميزون
E-BOOK
باسم الخشن

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

شرق جهنم

(رواية)

باسم الخشن

عن الرواية..

في قلب القاهرة عام ٢٠٠٥ نصحب خالد الفتى الذي يعيش مع جدته ذات الصيت الذائع في السحر وفك الأعمال..
خالد مصاب بمرض أعراضه أشبه بالصرع والكل يتهامس أنه لعنة من شياطين الجن..
خالد لا يهتم لما يقال فطالما كان بعيد كل البعد عن عما تمارسه جدته، حتى تظهر أمه في يوم طالبة العون من الجدة في لغز اختفاء قريب لهم لم يترك خلفه سوى مجموعة من الطلاسم الشيطانية الآن يهتم خالد، الآن يسأل والآن يرى أنه برغم كل شيء لا يستطيع أن يبقى بعيدا عما يجري في دمه..
سيحاول وحده أن يفك طلاسم شيطانية ويحل لغز اختفاء قريبه وربما يواجه شيطان أو أثنين..
حسنًا لن يكون وحده تمامًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإهداء

إلى كل الوحوش تحت فراشي التي آنست وحدتي بعدما تركني كل من أقسم على ألا يبرح جانبي.

إليهم وحدهم...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمهيد

كان يعرف من تمتمتها أنها ترى كابوسًا آخر لكنه لم يجرؤ على إيقاظها. فلعدة أيام لم تنل زوجته أبدًا كفايتها من النوم، ازدادت كوابيسها بشاعة حتى إنها صارت تتجنب دخول غرفة النوم.

يستمر خليط من الكلام غير المترابط والأنين في صوتها، ويوشك على إيقاظها رحمة بها من براثن عقلها ولكنه يعدل عن ذلك في آخر لحظة، يقرر عوضًا عن ذلك الخروج من الغرفة ليبحث عن بواقي طعام في المطبخ.

تكرر استيقاظه في مثل هذا الوقت لعدة أيام مع انتفاضات زوجته إن كانت نائمة، أو من صوت التلفاز بالخارج حين تقرر مقاومة النوم؛ فتأقلمت ساعته البيولوجية على الاستيقاظ في الثالثة فجرًا حتى وإن كان قد أغمض عينيه منذ ساعتين فقط.

كانت الليلة هي ليلة الخميس على ما يظن، لم يعد متأكدًا، نفض الأمر عن ذهنه وهو يبحث في جوانب المطبخ عن البيض البلدي الذي تصر زوجته ألا تضعه في المبرد درءًا للزفارة، انتقى ثلاث بيضات ووضع ملعقة وفيرة من السمن ثم أخرج قطع العجوة المجمدة ليصنع طبقه المفضل.

حرص على أن يأكل من إناء الطهي مباشرة ووضع المياه على النار ليحضر بعضًا من الشاي بالحليب ولكن لم يحالفه الحظ في إيجاد أي حليب. زفر متململًا وهو يكاد يقسم إن نصف ميزانية الطعام هذا الشهر قد ذهبت في شراء كراتين حليب كاملة.

أخبرته زوجته أنها تحتاج إليها للعناية بشعرها. متأزمًا ذهب إلى الحمام باحثًا عن واحدة من علب الحليب التي تستخدمها زوجته في طقوس التجمل حتى وإن شعر أن ذلك الحليب بوجوده في الحمام قد صار محرمًا، ولكن رغبات الفجر ورائحة الشاي الذي قد انتهى من الغليان غالبا اشمئزازه من الفكرة.

صوت أزيز مفصلات السرير بات أكثر ارتفاعًا وكأن المسكينة تصارع شيطانًا، قد صار الأمر سيئًا حقًّا؛ فمنذ يومين استيقظ ليجدها تجلس القرفصاء دامعة العينين تخبره أنها بللت الفراش من الخوف. توسل إليها أن ترى طبيبًا وكان الرفض التام هو ردها الدائم مخبرة إياه أنها ستتحسن قريبًا. وبالرغم من عينيها الدامعتين وقتها إلا أنها قالتها بثقة انتقلت إليه تلقائيًّا.. نعم.. الأمور ستتحسن، فكل ذلك حدث منذ أن جاء بنتيجة التحليل منذ شهر، وأقسمت عليه ألا يخبر أهله أو أهلها.

وجد غنيمته في علبة حليب لم تُفتح موضوعة على الغسالة بجوار حوض الاستحمام. أخذها وانطلق عائدًا للمطبخ ليُسخن الحليب كنوع من التطهير، حتى و إن جاء من عبوة مغلقة.

خرج بكوبه لغرفة المعيشة وقرر ألا يفتح التلفاز حتى لا يتسبب في إيقاظها، وحرمانها من تلك السويعات القليلة من الراحة قبل أن تعود إليها نوبة الرعب غدًا جراء ما تراه الآن في كابوسها، ستحتاج حقًّا لكل دقيقة نوم تحظى بها الآن.

جلس آلاف المرات على المقهى البلدي المفضل له، بكوب من الشاي ولا شيء سواه، متأملًا الخواء، ولم يشعر بالملل أبدًا، ولكن جلوسه الآن وكوب الشاي بالحليب في يده في غرفة معيشته، أشعره بالاكتئاب؛ خاصةً مع عذاب زوجته في الداخل.

قرر أن ينتقي من المكتبة أي رواية تلهيه قليلًا حتى تعاوده الرغبة في النوم، أو حتى تستيقظ زوجته ليواسيها حتى الصباح، كانت أغلب المكتبة متروسة بموسوعات وكتب دينية لا هدف لها سوى أن تكون جزءًا من الأثاث، ولكنه متأكد أن زوجته قد تركت مجموعة قصصية لإحسان عبد القدوس أو يوسف إدريس في مكان ما خلف كل تلك الموسوعات.

مر بيديه من خلف صف الكتب ليجد مجموعة أوراق أخرجها واضعًا إياها على الطاولة، ثم مد يده مرة أخرى حتى وجد ضالته. كانت مجموعة قصصية لإحسان عبد القدوس بالفعل، فأخذها مهيئًا نفسه أن يطالعها، ولكن بطرف عينيه لمح الأوراق التي أخرجها، بدت كأنها ملازم دراسية مصورة.

اعتراه الفضول فأمسك ببعض الأوراق ليجد أن الأوراق عبارة عن نسخ بالأبيض والأسود لكتاب ما. فشل في قراءة عنوانه الذي كان باهتًا أكثر من اللازم ولكنه بدا ككتاب دين أو كتاب تفسير حديث لكثرة التشكيل والخط العربي الذي تشعر وكأنه كُتب باليد. كان المكتوب عربيًّا ولكن عربية قديمة، مثل التي كان يراها في مقررات الثانوية في الشعر الجاهلي وفشل دائمًا في أن يفهم أو يحفظ معانيها، يشعر بالصداع من محاولة قراءة الكلمات فكاد أن يهملها حتى أثارت اهتمامه الصور المصاحبة للكلمات، كانت أشبه بصور الحكايات الشعبية والرسومات التي تجدها في كتب ككليلة ودمنة، بالتأكيد هذا ليس كتاب دين، ثم استوقفته صفحة كان فيها الكثير من الخطوط وصورة تحتل أغلب الصفحة لامرأة تسكب فوق جسدها العاري من إبريق قد خرج من جانبه سهم يوضح محتواه أنه حليب، وامتد خط من فرج تلك المرأة ليظهر منه رسم لفارس مدرع وامتد خط كُتبت فوقه علامة خروج الإيمان الأخيرة.

انقباضة في قلبه لم يميز سببها إلا بعد عدة لحظات رافعًا نظره لعلبة الحليب التي أمامه، والتي صنع منها كوب الشاي البارد. نفض الأفكار السوداء عن ذهنه بابتسامة ساخرة ولكنه لم يجرؤ على لمس الكوب أو أن يكمل تفحص الأوراق؛ اتجه من فوره عائدًا لغرفة نومه وقد علا أنين الزوجة بشكل لا يصدق خروجه من إنسان نائم دون أن يصحو.

كان قد اتخذ قراره بأن يوقظها.

اقترب منها بهدوء، متكئًا على الفراش ليشعر ببلل تحت أقدامه، ارتعشت يداه وعدل عن لمسها وقرر -ممسكًا بطرف الغطاء- أن ينزعه عنها قبل أن يوقظها، فقط أراد أن يلقي نظرة واحدة، ليس لأنه يشك في أي شيء.. فما الذي يمكن حتى أن يشك فيه؟

نظرة واحدة ربما يفهم... نظرة واحدة فقط، فما أسوأ ما يمكن أن يحدث؟

ازدرد لعابه وأزاح الغطاء كاشفًا زوجته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

-١-

- شكلك مش مصدقني.

أنظر يمينًا ويسارًا أثناء عبور الطريق، وأجيبه: يا عم أنا قلت حاجة كمل!

متضايقًا يُعلن: لأ يا خالد أنت واخد الموضوع تهريج وبتضحك، مع إن الموضوع خطر وأنا مابحكيش فيه مع أي حد.

نتلكأ الخطى بعد أن اعتلينا الرصيف وأنا أضع يدي على كتفه موضحًا: يا عم وليد فين التهريج بس؟ كل الحكاية إني تخيلت موضوع الصباع ده فضحكني.

أمسك يدي قائلًا في خطورة: لا يا برنس الموضوع ده ماينفعش فيه ضحك، يلبسونا احنا الاتنين.

أرسم أعتى ملامح الجدية على وجهي، وأنا أطمئنه: خلاص مش هضحك تاني كمل أنت بس.

كنت أحب حكايات وليد التي لا تخلو من الجن والخوارق في طريقنا اليومي لاستوديو التصوير الذي نعمل به، نلتقي في محطة مترو فيصل ونأخذ المكروباص سويًّا لآخر فيصل حيث استوديو كوداك العتيد، إذ نقضي عشر ساعات من العمل على تعديل إضاءات الصور، وتغيير ألوان العيون، وإزالة حبوب الوجه للزبائن على برنامج الفوتوشوب الذي دخل البلاد حديثًا، ويعد في حد ذاته دربًا من دروب السحر، ووليد صديقي واحد من أهم أسطواته.

لا أمل أبدًا من ثرثرته الدائمة عن مغامراته مع العفاريت والجن.

- المهم، زي ما كنت بقولك، بعد ما بتقراهم بصوت عالي، وتشك صباعك الكبير خمس شكات يجيبوا دم، بتلاقي صباعك ده قعد يكبر يكبر يكبر لحد ما يبقى قد راسك.

يختلس لي نظرة بطرف عينه ليتأكد أني لن أضحك مرة أخرى. لم أخيب ظنه، وقد حافظت على وجهي الجاد ليستطرد: البسم الله الرحمن الرحيم ده بقى اسمه «لطيش»، تسأله على مكان أي حاجة ضايعة منك ومكان أي حد يقولك على طول.

أشطح بخيالي منتشيًا مما أستطيع تحقيقه لو حضّرت ذلك الجني، كل فِرد الجوارب الثكلى يمكنني جمعها بأزواجها مرة أخرى.

يقترب من موقف الميكروباصات ولكني أجذبه قائلًا: فكك بقى من الميكروباص إحنا جايين بدري كده كده. تعالى نتمشى بدل القعدة قدام الاستديو لحد ما أحمد ييجي يفتحلنا.

لا مباليًا يعدل وليد اتجاهه عن فوره ويكمل: قشطة.. المهم.. على سيرة الواد أحمد، جه مرة وعمل فلوطة وقالي أنه مابيصدقش في الـ«بسم الله الرحمن الرحيم» ودي تخاريف، أقوله استغفر ربك دول مذكورين في القرآن، ولا هو هنا.

ونظر لي نظرة «هل تتصور مدى الجهل؟» فأومأت برأسي متصعبًا على حال العباد وهو يكمل:

- يومها حضرت «لطيش»، وسألته الواد أحمد ابن ثريا...

صمت للحظة وغمز لي بخبث لم أفهم مبرره: ماكنتش تعرف إن أمه اسمها ثريا أنت. صح؟

لم ينتظر ردي وكأنما فقط يثبت لي سعة علمه وأكمل: سألته بقى الواد أحمد مجدي ابن ثريا فين دلوقت؟ غاب دقيقة ورجع قالي إنه نايم في أوضته، ووصفلي الأوضة، ولون اللباس اللي كان لابسه. تاني يوم بقى أما قابلته الصبح...

سرحت في أفكاري متعجبًا كيف تركه لطيش وعاد، هل انفصل أصبعه عن جسده وطار من النافذة؟ إبهام في حجم رأس إنسان يحلق فوق أرجاء المدينة، ربما نكون في تلك اللحظة قد عرفنا سر الأطباق الطائرة في جميع أنحاء العالم، إنه لطيش الجني الحبوب، يساعد الأشخاص في العثور على مفقوداتهم ومعرفة ألوان الألبسة الداخلية لأصدقائهم.

أمسكت ضحكاتي بصعوبة، ولكن ابتسامة فرت مرتعشة على وجهي، فقلت بسرعة كي لا يعتقد أني أسخر منه: بتخيل بس لو الواد أحمد نايم شوية براحته من غير هدوم.. مايصحش.

رافعًا صوته: لا يا خالد، لطيش بردو من الجن المؤمن، مايكشفش حرمة مسلم أبدًا. ولو كان مش لابس أو في وضع مش ولابد ولا حاجة كان رجعلي تاني.

- علشان تبعته يجيب لون لباسه في يوم تاني؟

أشاح وليد بيده وهو يقود الطريق، مكملين مسيرتنا: يا خالد يعني دي الحاجة الوحيدة اللي كان ممكن يعرفهالي! طب تصدق بقى إني عرفت حاجة أخطر يومها.

أشار بيده أن أتوقف ونظر بخطورة حولنا ليتأكد من أن أحدًا لا يسمعنا.

بالطبع هناك العشرات من الأشخاص حولنا، وكلهم يستطيعون سماعنا لو كان لديهم أدنى قدر من الاهتمام بما نقوله، فلا داعي لما يفعله سوى الإيحاء بالخطورة وأن يجعلني أندم على عدم ركوب الميكروباص.

- الواد أحمد ملبوس.

لا أعرف ما الذي يمكن أن أرد به على ما قاله، فابتسمت لتغمرني مشاعر متباينة من التعجب والتأثُّر، وربما بداية ضحكة لتغطية احتمال وارد وهو أن يكون يمزح.

تأمل تشنجات وجهي في ريبة لثوان ثم أكمل: أصلك خدت بالك جسمه معصعص ازاي وهو مابيبطلش دب أكل؟

تذكرت حين جاء أحمد لمنزلي لتوصيل راتبي يوم كنت مريضًا، وكيف دعته جدتي لتناول الغداء معنا، وكيف كان يأكل بنهم كمن يرى الطعام لأول مرة.

كنت شاكرًا لوجوده يومها جدًّا لأني حين ذكرت لجدتي أنه يوم الراتب وأنوي أن أبتاع لنا بيتزا احتفالًا بالراتب وعرفانًا بسيطًا بمجهودها في الأيام الماضية في الاعتناء بي بعد نوبة الصرع اللعينة

فأصرت أن تصنع بيتزا بيتي «أنضف وأحلى من بيتزا الشارع» على حد قولها.

يومها كان أحمد بطلي المنقذ الذي أنهى وحده صينية ونصف من البيتزا المنزلية واستطعت بفضل الله أن أتخلص من نصف الصينية الباقي دون أن تلاحظ جدتي مما رسخ فكرة أن صنعها بيتزا في المنزل مستقبلًا سيكون مكافأة واحتفالًا على أي إنجاز سأقوم به. لذا فأنا حريص على الإقلال من إنجازاتي أو مشاركة أي دوافع احتفال.

- لطيش بقى جابلي الحكاية كلها، كان بيزور أهل أبوه في البلد، وقاعد في السهرة كده بيعملوا شاي على سبرتاية قدام بيتهم، وبعد ما الشاي غلي ماسماش وهو بيصبه على الكوباية، أتاري بقى في جني والواد معفن ولا غسل الكوباية ولا سمى قبل ما يحط الشاي. الجني اتحرق، وصمم يلبسه من ساعتها.

كان لدي ألف سؤال عن أحجام الجن وخصائصهم الفيزيائية باعتبارهم مخلوقات من نار، فهل الأذى سببه الماء أم درجة حرارة الشاي أو ربما نوع الشاي.

- صحيح أنت جبت شاي غير اللي خلصناه إمبارح؟

لم ينتبه وليد لأني غيرت الموضوع، وخبط ظهر يده بكفه وهو يقول: أوبا جدع! خلينا نجيب علبة في طريقنا.

مررنا سريعًا لنحضر عبوتي شاي، عبوة سائبة للمصورين وعمال الاستوديو، وعبوة مخصوصة فتلة لفريق فنيي الفوتوشوب المكون من شخصي أنا ووليد ومحمود.

وصلنا في توقيت ممتاز حين كان أحمد قد وصل لتوه ليرفع الستار الحديدي ويرحب بنا بعين نائمة.

ندخل الغرفة الخلفية المجهزة بثلاثة أجهزة على أعلى طراز حيث يحدث السحر كله. سمينا الله، وأدرنا أجهزتنا وانطلق كل منا في طريقه، يحتاج الجهاز نحو ساعة إلى ساعة ونصف ليعمل ويُحمِّل كل البرامج، وفي تلك الفترة يمكننا أن ننتظر بالخارج نعد الشاي ونلقي بالتحية على باقي الزملاء ونتناول إفطارًا سريعًا.

- وليد أنت مش هتكلم الحاج في موضوع الرامات ده؟ إن ماكانش عنده محل كمبيوتر في شارع الهرم.

- اسكت والنبي علشان لو فتحنا معاه أي حاجة دلوقت هيقولك ما أنا لسه جايبلكم التكييف.

- أيوه ماهو التكييف ده جه في الصيف وماكنش علشانا، إحنا اتأقلمنا على الوضع، وكنا بنشتغل من غير بنطلونات، لما الأجهزة بدأت تفصل من الحر وشغل الزباين يتأخر جاب التكييف.

- طب بس والنبي بلاش تكلمه النهارده يا خالد علشان أنا عاوز آخد سلفة. ولو فتحت معاه الموضوع...

انقطع حديثه فجأة وتعلقت عيناه بنقطة ما خلفي.

التفت لأجد أن «ندى» فتاة الاستقبال قد حضرت بكامل بهائها وابتسامتها المشرقة.

أبتسم وألوح مرحبًا بها قبل أن تعود عيناي لتلتقي بوجه وليد.. كارهًا ما عرفت يقينًا أنه سيطلبه مني الآن.

- وحياة أمك وأبوك وكل اللي جابوك.

أضع يدي على رأسي قائلًا: ياعمي والمصحف الناس بدأت تفتكر أن أنا اللي بحاول اظبطها.

قال بضيق: في إيه يا عم خالد الكلام ده تظبيط إيه بس! أنا داخل سكة جواز، شوفلي أنت بس في قبول ولا لأ. ماكنتش بتعرف تتكلم معاها الضهرية والحج موجود أهي جت الصبح أهي. اكسب ثواب في أخوك وأشيلهالك جِميلة.

- العفو يا وليد أنت جمايلك مغرقاني.

لا أعرف، هل كان خطئي الأكبر حين أخبرته أنها جارتي عندما بدأت العمل هنا منذ شهر، أم حين شجعته على أن يأخذ خطوة تجاهها؟ في يوم أردت منه أن يعلمني تقنية جديدة في الفوتوشوب، ولم يكن مزاجه رائقًا لأنه رآها تطيل الحديث مع أحمد. لكن الأكيد أني أستحق ذلك.

- طب بص تخلص بس كلام مع أحمد، وهروحلها على طول.

- لأ ده أحمد ده مابيسكتش، ده ون ون ون..

ثم صاح فجأة وهو على بعد شبرين من أذني: ياض يا مجدي تعالى عايزك.

غمغمت بصوت خافت: ودني يا وليد. وبطل تنادي الواد أحمد تقوله ياض يا مجدي، علشان ده اسم أبوه وأبوه ميت وبيزعل.

- يا عم أبوه اللي غلطان، في حد يسمي أحمد! ده كأنه مسميه نيو فولدر. معلش أنا هبقى أصالحه روح أنت بس.

أطلقت زفرة طويلة، وتلاقت عيني بعين أحمد سريعًا لأومئ برأسي إيماءة اعتذار، تقبلها وهو يشير بيده أن كله على الله، واقتربت من ندى.

- صباح الخير يا ندى.

- مالك شايل طاجن ستك ليه؟

كدت أسألها عن سبب مجيئها باكرًا، ولكني شعرت أن ذلك مط لا حاجة لي به، وتدخل غير مناسب في حياتها.

- لا أبدًا كنت جاي مع وليد النهارده...

- ماتقولش، كَل ودنك بردو عن الجن والعفاريت اللي بيحضرهم.

ضحكت رغمًا عني، ثم تجمدت البسمة على وجهي حين أكملت:

- أمال لو عرف جدتك تبقى مين.

يبدو أن استيائي قد ظهر على وجهي، فقد تبدلت ملامحها سريعًا واضعة يدها على فمها: آسفة والله ما قصدي. أنا وعدتك إني مابتكلمش في الموضوع ده مع حد، بس لقيتنا واقفين لوحدنا فكنت بتكلم عادي حقك عليا، بص طب أنا عازماك على الفطار النهارده.

أهز رأسي قائلًا: لأ فطرت مع تيتا، بالهنا والشفا انتي.

- طب أصالحك إزاي طيب؟

ألمح نظرات الهلع في عين وليد من بعيد، بالتأكيد ظن أن الامتعاض على وجهي سببه رفضها له بعد أن أخبرتها. أحاول أن أشير له بيدي أني لم أخبرها، ينظر لي بأسى ويهز رأسه متفهمًا ثم يدليها على صدره ويتجه للغرفة الخلفية.

يا للغباء لقد ظن أني أخبره أنها رفضت.

- وليد...

يجري اسمه على لساني دون تفكير، ثم أنظر لندى مرة أخرى لأقول موضحًا: تتجوزي وليد؟

- مالك؟

مجمعًا أفكاري وأنا أتحدث: النهارده وأنا جاي... كنت جاي مع وليد... فكنا بنتكلم بس هو الموضوع مش من النهارده بس... هو كان كلمني قبل كده... بس النهارده بالذات علشان احنا صبح وبدري وجبنا شاي بدل اللي خلص إمبارح... وإنتي بتشربي الشيخ الشريب تقريبًا؟

نظرة غاضبة بدأت تتكون على وجهها، صمتُّ لثانيتين مجمعًا أفكاري ثم قلت: وليد عاوز يتقدملك بس عاوز يعرف إذا كان في قبول ولا لأ مش أكتر. وهو يعني إنتي عارفاه.. محترم وابن ناس.. أعتقد.

- تعتقد إنه ابن ناس ولا تعتقد إنه محترم؟

- لا أعتقد إن إنتي عارفة.

- فأنت بتخطبلي؟

ينهار تماسكي تمامًا وأخبرها متضرعًا: والله يا ندى أنا لقيت وليد جاي بيطلب مني أعرف إذا كان في قبول ولا لأ علشان هو بيتوتر ومابيعرفش يتكلم في المواقف دي.

لوت شفتيها وهي تقول: على عكسك طبعًا.

رددت سريعًا: آه بالظبط.

قبل أن أستوعب الإهانة.

- عمومًا شوفي تحبي أقوله إيه أو ماقلوش وماليش دعوة بالموضوع.. أنا آسف لو ضايقتك أنا كان قصدي خير.

تنظر لي نظرة مشفقة ثم تقول لي بعد تنهيدة طويلة: مش عارفة يا خالد، أنا ماعرفوش ولسه مبقاليش شهر هنا، يسيبلي حبة وقت بس وربنا يسهل.

لا أنبس بكلمة أخرى وأنا أسرع للغرفة الخلفية عائدًا لوليد بذلك الانتصار الكبير (ربنا يسهل).

أبشر يا وليد (ربنا يسهل).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وانتهى يوم عمل آخر طويل وإن شعرت أنه مر سريعًا من كثرة الصور التي عملت عليها.

لا أمانع في طول يوم العمل، طالما كان هناك ما يشغلني. فقط تلك الأيام في منتصف الأسبوع التي نجلس كما لو كنا في سجن ننتظر ساعة الإفراج السحرية هي التي تصيبني بالجنون. ميكروباص وتبديلة مترو وتمشية شتوية قصيرة وأجد نفسي على أعتاب المنزل.

أصعد السلم درجتين في كل خطوة لهفة لدفء البيت بينما أبحث في جيبي باحثًا عن المفتاح. حين أصل لدور الشقة تكون إضاءة السلم قد انطفأت حيث إنك تحتاج إلى إعادة الضغط على زر الإضاءة كل عدة أدوار كنوع عتيق من ترشيد الطاقة.

حين أفشل في إيجاد المفتاح في جيوبي أمد يدي ناحية الحائط متحسسًا مكان زر الإضاءة. حفيفًا خفيفًا يأتي عن يساري، يجعلني أجفل، ثابتًا في مكاني، هناك في الظلام على السلالم التي تجاور باب شقتنا هناك شيء يتحرك بالتأكيد، لا.. ليست قطة.. وتلك الكتلة أصغر من أن تكون إنسانًا.

أكتم أنفاسي للحظات آملًا أن تعتاد عيناي على الظلام سريعًا لأميز تلك الكتلة يدي تتحرك في تأنٍّ على الحائط المليء بالبروز حتى أجد زر الإضاءة، أستعيذ بالله من الشيطان وأضغط عليه.

ومع مجيء النور أكاد أصاب بنوبة قلبية قبل أن أستوعب أن الواقف أمامي صبي صغير لا يمكن أن يزيد عمره على ست سنوات، يتدلى المخاط من أنفه ومن احمرار مقلتيه يبدو أنه قد بكى حتى جفت دموعه، وبقيت فقط تلك النهنهة العصبية التي تحتاج لتربيتة كتف واحدة لتنقلب لبكاء صارخ يحطم الأعصاب.

أعتقد أني أعرف ذلك الصبي، هو أحد أبناء جيراني في نفس الحي.. حمادة أو ميدو.. يفاجئني الصبي بالكلام موجهًا حديثه لي: تيتة.. تيتة.. تيتة إبتسام موجودة؟

مأخوذًا من سؤاله المفاجئ أجيبه: ماعرفش.. أقصد أكيد جوه.. أنت رنيت الجرس؟

يهز رأسه في قوة.

- طب أنت كويس؟

يتوتر الصبي ويبدو وكأنه يجري حسابات مصيرية في ذهنه ناقلًا بصره ما بيني وبين باب الشقة المغلق، ثم يحسم أمره قائلًا: ماما عاوزة تجيبلي العو يا خالد.

يقولها ثم ينهار السد وتعود الدموع لمجراها، ولكن لا يمنعه ذلك من أن يكمل: أنا ماكنش قصدي أكسر الحاجة، أنا بجرب بس الكورة في الصالة علشان رايح بيها بكرة المدرسة. وأنا المرة اللي فاتت الكورة طلعت بايظة فقلت أجربها وأنا ماقصدش، وهي قالتلي إنها هتجبلي العو بالليل.

فقدت الكثير من الكلام في بكاء الصبي، ولكنني استوعبت المشكلة.

فكرت أن أخبره أن لا يوجد شيء اسمه العو، ولكن كنت قد قرأت في مكان ما أنه يجب عليك ألا تسخر من مشكلات الأطفال، وأن تتعامل معها بجدية دائمًا.

نزلت على ركبة واحدة، لأصبح في مستوى نظره وبلهجة جادة بدأت حديثي مستلهمًا روح الأب والمربي: توء توء.. مافيش راجل بيعيط.. مش أنت راجل؟

هز رأسه بقوة مرة أخرى، انتابني الحبور وقد شعرت أنني على الطريق الصحيح.

- طب خلاص نبطل عياط بقى. العو مابيجيش لرجالة. لو عيطت هيفتكر إنك عيل صغير وياكلك.

للحظة ساد السكون والصبي فاغر فاه يستوعب ما قلته ثم اتسعت عيناه وانطلق صارخًا في البكاء وهو يرتعش ومن بين صرخاته ميزت: هو العو هياكلني؟

وكانت تلك بالطبع اللحظة المناسبة، أن يفتح باب الشقة وأجد جدتي واقفة بعكازها: فيه إيه يا خالد؟ مين ده وبيعيط ليه؟

أنتصب واقفًا على قدمي محاولًا شرح موقفي: دااا.. دااا حمادة يا تيتة.

يقاطعني الطفل الناحب: أنا مش حمادة أنا بودي يا خالد.

تأخذ جدتي بيد بودي وتقربه إليها وهي تجلس على مقعد تضعه دائمًا بجانب باب الشقة وأتجه أنا لغرفتي في نهاية معركة أخرى خاسرة لم أكن مهيئًا لها.

بعد عدة دقائق أسمع صوت الباب يُغلق، وخطوات جدتي الثقيلة تتجه للمطبخ فأتبعها لتقول لي: يابني مش حرام عليك تخوف الواد وتقوله العو هياكلك؟

أنتظر حتى تتخذ مقعدها على مائدة المطبخ، لأمر من خلفها فاتحًا المبرد وأنا أقول: أكيد مش قصدي، أمه قالتله هجيبلك العو وهو خايف منه، هو فاكر العو ده هيعمله إيه؟ هيحطه في ركن ويرفعه إديه؟!

أحملق في محتويات الثلاجة وكأني أبحث عن إلهام وليس طعامًا، أعرف جيدًا أن لا شيء جديد قد أضيف لها منذ الصباح، لكنها تلك النداهة التي تجذب العقول والقلوب والمعدة الخاوية للتأمل والتفكر، بينما الهواء البارد يهرب من خلف بابها المفتوح.

- يا خالد اقفل التلاجة هتخلص الفيريون.

تقولها جدتي ضجرة من تشتت ذهني وأنا أتناول زجاجة من ذلك المشروب الرياضي الأزرق الذي تدمنه جدتي، وتطلب منه صناديق من أحبابها القادمين من الخليج، وقد أورثتني هذا الإدمان حتى إننا

لا نبدأ صباحنا ولا ننهي يومنا إلا بزجاجة من ذلك المشروب الذي تقسم جدتي إن فيه شفاء من كل الأمراض، على عكس كل المتعارف عليه وسط الأمهات أن الشفاء فقط في «السفن أب».

لم تكن هناك سوى زجاجة واحدة؛ أعض على شفتي ممتعضًا وأنا أنظر بجوار المبرد لأتأكد إن كان لا يزال هناك مخزون باقٍ أم لا.

أغلق باب الثلاجة وأضع زجاجة أمامها بعد فتحها.

- صحيح يا تيتة عندي سؤال غريب.

تتجرع من المشروب في يدها وتنظر لي في انتظار سؤالي.

- فاكرة الواد أحمد مجدي اللي جه جابلي المرتب لما كنت عيان.

- آه الواد المعصعص ده اللي مابيبطلش أكل.

أحك مؤخرة رأسي وأنا أقول: آه هو.. هي دي علامة إن هو اااا... ملبوس يعني؟

تضع الزجاجة على المنضدة وتتأملني في صمت للحظات وقد بدا عليها الاستياء من تحدثي بتلك الأمور، ولكنها تجيب على أي حال: لا يا حبيبي مش ملبوس ولا حاجة، بطنه بس فيها دود.

يطول الصمت، وأشعر أنه لم يتوجب علي أن آتي على ذكر أي من تلك المواضيع حتى لو من باب المزاح ليأتي جرس الباب محطمًا ذلك الصمت غير المريح؛ ربما كان حمادة عائدًا يبحث عن ملاذ من العو.

أفتح الباب لأجد امرأة ترتدي إسدالًا بنيًّا، أحتاج لثوانٍ حتى أستوعب - وهي تحتضني ملثمة خديّ- إنها أمي.

- صباح الخير يا حبيبي، كنتوا نمتوا ولا إيه؟

متلعثمًا أقول وأنا أبادلها الأحضان: لـ.. لأ يا ماما أنا لسه راجع من الشغل.

أقولها وقد ارتحل ذهني محاولًا تذكر آخر مرة رأيتها فيها، لا بد أن ذلك من أشهر عدة، ربما حتى كان العام الماضي.

- مين يا خالد؟

يأتي صوت جدتي، ألتفت لأرد ليسبقني صوت أمي: أنا يا ماما.

ثم تشق طريقها ناحية المطبخ، أتبعها شاعرًا بانقباض طالما اعتراني حين يحيد يومي عن روتينه المألوف.

- مين مات؟

تحييها جدتي بتلك الكلمات.

- هو أنا ماجيش أزورك إلا...

نظرة من عين جدتي تثنيها عن أن تكمل جملتها، لتقول بدلًا عن ذلك: ماحدش مات يا ماما.

تقولها وهي تضع حقيبتها على طاولة المطبخ ثم تكمل: طب ما تيجي نقعد بره أحسن.

- لا أنا مافييش حيل أقوم. عايزة إيه يا سهيلة؟

أتناول الزجاجة الفارغة من أمام جدتي لألقي بها في سلة المهملات محاولًا ألا تبدو علي ملاحظة جفاء جدتي مع أمي.

- طيب معاكي حق أنا مش هطول عليكي... أنا بس عندي طلب ووالله مابطلبه إلا عشان الضرورة.

أختلس نظرة لوجه جدتي الذي ينافس أعتى لاعبي البوكر في العالم، ثم أتجه ناحية الحوض متصنعًا شطف الأكواب النظيفة موليًا ظهري لهما.

تتنهد سهيلة قبل أن تقول: طه ابن عمة خالد، بقالنا أربع أيام مش عارفين له طريق. وده مش عادته يعني الواد غلبان، ومالوش مكان غير البيت القديم وشغله مع أبو خالد.

- أيوه، وأنا مالي يعني؟! ده شحط أكبر من خالد، ما تروحي تبلغي البوليس.

- ما أكيد بلغنا يا ماما، خصوصًا إن كل حاجته كانت في البيت زي ماهي، ولفينا أكيد في المستشفيات، وحتى الـ.. مشرحة.

- لا حول الله يا رب.. لا إن شاء الله يكون بخير. بس مش عادتك يا سهيلة إنك تجيلي بخصوص المواضيع دي.

- يا ماما ما هو ماكنش في مواضيع زي دي قبل كده.

- لا يا حبيبة أمك إنتي فاهمة قصدي، بخصوص مواضيعي أنا، اللي مش راضية عنها إنتي وجوزك.

كان تظاهري بتنظيف الأكواب قد طال، فقررت أن أتظاهر الآن بتجفيفها متمنيًا لو كنت قد دخلت غرفتي، أو تركت الشقة كلها منذ اللحظة الأولى.

تنهيدة أطول تطلقها سهيلة وهي تتناول حقيبتها باحثة عن شيء بين محتويات الحقيبة.

- نجيب مالوش دعوة بالموضوع ده يا ماما والله، الواد يتيم ومالوش حد، بس لقينا حبة ورق غريب.. يعني.. بصي كده.

كاد الفضول يقتلني لألتفت وأرى تلك الأوراق التي تتحدث عنها أمي، ولكني قاومت مستمرًّا في تجفيف وتلميع الأكواب.

دفعت جدتي يد أمي الممدودة وهي تقول: هو أي حد شايل ورقتين عاملهم حجاب يبقى أنا المسؤولة عنه؟

- يا ماما والله ما قصدي، مابقولش إنتي اللي عملاه ولا...

- ولا تقولي حاجة يا حبيبتي، دلوقتي فاكرة إن ليكي أم؟ وفاكرة إن عندك ابن؟ وتقوليلي ابن عمة خالد.. لا يا ماما خالد ولا ليه أم، ولا أب، ولا عمام، ولا خيلان غيري. روحي استني البوليس يلاقيهولكم، وابقي كلميني قبل أمَّا تيجي بعد كده، علشان ماحدش ناقص نكد ع آخر اليوم وعطلة. وأنت يلا يا خالد علشان ماتتأخرش عن نومك وتروح شغلك تعبان، اللي سهيلة حتى ماتعرفش هو إيه، ولا باركتلك عليه.

تقف أمي مصدومة للحظات وعيناها مثبتتان في الفراغ قبل أن تتمالك نفسها وتضع الأوراق القديمة في حقيبتها وتقول: مبروك يا خالد يا حبيبي، بابا هيفرح أوي.

تضع حقيبتها المفتوحة على كتفها وتنطلق خارجة دون الانتباه إلى أن الأوراق قد وقعت من طرف الحقيبة المفتوحة.

تمر لحظات صمت طويلة قبل أن أقول: ليه كده بس يا تيتة!

لحظات أخرى تمر تشوح جدتي فيها بيديها دون كلمات وكأنها تجري محادثة في عقلها ثم تقول: صعبانة عليك يا خالد؟ صعبانة عليك؟

ألتفت لجدتي قائلًا: لأ مش صعبانة عليا، هي ماحصلهاش حاجة، ماهي دي خناقاتهم العادية، بس لو تقدري تساعدي طه يعني.. الواد غلبان بردو.

- لأ ساعدها أنت يا خالد، انزل الحقها وانزل لف في الشوارع معاها دوروا عليه، وبعد ما يلاقوه هينسوا إنك موجود بردو علشان تبقى فاهم.

أنطلق مهرولًا وأنا أقول: يا تيتة أنا هنزل أشوف ممكن نساعدها ازاي علشان طه، مش فارق معايا بقى مين يفتكرني ومين ينساني.

قلت كلماتي الأخيرة وأنا بالكاد على مرمى سمع جدتي، وقد شعرت بثقل الكلمات على لساني. هل حقًّا لا يهمني أن أُذكر أو أُنسى؟

كان العرق قد بدأ يرصع جبيني بقطراته الباردة، وبوادر صداع ربما من حدة الموقف.. ربما من قلة النوم ولكنه كان يأتي بسرعة.

أنزل السلم سريعًا، وأسرع الخطوات آملًا في اللحاق بأمي، غير عالمٍ ما الذي يمكن أن أقدمه لها حقًّا، ومع تلك الفكرة تتباطأ خطواتي قليلًا.

ماذا لو عرضت أن أساعدها وكانت الإجابة هي تربيتة على الكتف ونظرة حزينة تخبرني أن لا قيمة لمساعدتي؟ لا قيمة لأي مجهود قد أبذل؟ وربما لا قيمة لوجودي ذاته.

أنفض تلك الأفكار عن رأسي محاولًا أن أعود إلى هرولتي، وحين لا أرى أمي على مرمى البصر يمينًا أو يسارًا؛ أفترض اتجاهًا قد اتخذته، وأركض فيه.

أقل من عشر خطوات ويتملك الصداع من رأسي، ويحل ضيفًا جديدًا على جنبي. ألم حاد كسكين يمتد من جانبي حتى ردفيّ، ويزحف لباقي جسدي... ثم يأتي الكابوس، تلك الومضة الكهربائية التي آلفها

وأهابها.

تأتي كضربة برقٍ في مقدمة رأسي، وتمتد لعضلات جسدي، ليتلقفني الألم الزاحف، وأسقط أرضًا، ويبيض كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يتوقف صراخ الرضيع للحظة، والعرق ينضح من كل شبر من الجسد الصغير، وبجوار فراشه رجل وامرأة يتعاركان.

- يعني نسيب الواد يموت يا نجيب عشان أنت مش طايقها؟!

تقولها الأم منفعلة.

- ده كفر يا ستي.. اللي أمك بتعمله ده كفر، نكفر بربنا وتقوليلي ده اللي هينجي الواد؟!

- إحنا عيلة كافرة ولاد ستين كلب يا سيدي، روح صليلك ركعتين لو لسه فاكر بتتركع إزاي ومالكش دعوة باللي هي هتعمله.

يضرب نجيب كفًّا بكف وهو يقول: هو عشان مابصليش نقوم نكفر يا سهيلة! أنتي اللي كنتي مش عايزة أمك في حياتنا من الأساس! وأنتي اللي طلبتي نبعدها عن خالد خالص.

- فنسيب خالد يموت عشان تنفذلي طلبي!.. امشي من وشي يا نجيب.

يمسك نجيب بكتف سهيلة في رفق محاولًا تهدئتها: يا حبيبتي ما الدكتور الكويس اللي أختي قالتلي عليه، هيشوفه بكرة...

تنتفض سهيلة صارخة: ابني بيموت يا ابن الباردين وأنت بتقولي بكرة! أنت ماعندكش...

يقطع جرس الباب صراخها فتهرع لتستقبل الجدة بينما يلقي نجيب نظرة متحسرة على الرضيع الذي نحتت شرايينه على جسده من كثرة الصراخ.

دقائق وتنضم الجدة والأم لهما في الغرفة، بينما جلى التوتر على ملامح نجيب فور دخول الجدة.

- نجيب، خد سهيلة واستنوني بره.

تقولها الجدة دون النظر إليه؛ فعيناها مسمرة على الرضيع، تتحرك الأم جاذبة الأب في يدها وهو يحاول إظهار أنه يريد البقاء في الغرفة، ولكن ارتعاشة صوته تخونه وهو يتمتم: لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم احفظنا.. اللهم احفظنا.

تغمض الجدة وهي تزفر قائلة: لأ علّي صوتك يا نجيب واقرا عليا آية الكرسي كمان يمكن اتحرق وأهو نولع كلنا.

تزداد خفقات قلب نجيب فزعًا وخطواته سرعة، وهو يكاد أن يدفع سهيلة دفعًا لخارج الغرفة.

تقف الجدة ثابتة للحظات بعد أن فرغت الغرفة، ثم تضع حقيبة يدها على المنضدة المجاورة لفراش الطفل، الذي لم يتوقف عن الصراخ للحظة بقوة رئة يحسده عليها أعظم السباحين.

تتفحص داخل حقيبتها للحظات، مخرجة مبخرة صغيرة تفتحها لتتأكد من ارتصاص كل الأحجار الثمينة بداخلها، برفق تسحب شعرة من الشعيرات القليلة من رأس الرضيع، تضع الشعرة داخل ورقة صفراء خُطت عليها أشكال هندسية متداخلة وأحرف وأرقام تبدو عشوائية، تطوي الورقة وبداخلها الشعرة ثلاث طيات، وتضعها داخل المبخرة فوق الأحجار.

تخرج قنينة زجاجية صغيرة، ترش منها نقاطًا قليلة من السائل الزيتي بداخلها على الورقة والأحجار قبل أن تمد يدها مخرجة عود ثقاب...

لكن وقبل أن تشعل عود الثقاب تتوقف للحظة، وقد ظهرت علامات التفكير على وجهها، تتفحص حقيبتها مرة أخرى باحثة عن شيء ما لعدة ثوان، ثم تبتسم في رضا وقد عثرت على غايتها، تخرج يدها من الحقيبة قابضة على قطعة معدنية صغيرة تشبه العملة المالية لكنها مربعة وليست مستديرة، بفتحة في منتصفها.

تنظر للرضيع للحظة مترددة، لكنها تحسم أمرها سريعًا واضعة على القطعة المعدنية بعض النقاط من المادة الزيتية التي بالقنينة وتشعل بيها النيران لتضيء بلهب أزرق خافت.

- معلش يا خالد يا حبيبي، أنت كده كده بتعيط وموجوع، خلينا نخلص ده الأول، قبل ما نجلي عيا الوارثين عنك.

تأخذ نفسًا عميقًا محاولة إقناع نفسها بما قالته، تتقدم ناحية الرضيع، قائلة: ما هو يا ضنايا مش هيكون أوسخ من يوم ما طاهروك، استحمل دلوقتي وأنت مش واعي.

قالتها ثم قلبت العملة على الوجه المشتعل على صدر الرضيع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أفتح عيني صارخًا لأجد أن يد جدتي ممسكة بيدي فأكتم صرختي على الفور مستوعبًا أنني في غرفتها.

- أنت كويس يا ضنايا؟

أهز رأسي لاهثًا، زائغ العينين، ثم أطلق زفيرًا طويلًا: أنا وقعت في الشارع؟

- ماحصلش حاجة يا خالد يا حبيبي، الجيران طلعوك على طول، ودكتور إسلام بتاع الصيدلية إداك حقنة.

أهز رأسي دون أن أنبس بكلمة شاعرًا بخسائر ما بعد النوبة.

- أنت ماكلتش قبل ما تنزل، وماشربتش العصير بتاعك.. ماشربتش العصير ليه يا خالد؟

أبتسم رغمًا عني قائلًا: معلش يا تيتة كانت هي آخر واحدة ساقعة، هبقى أحط في التلاجة تاني.

- ساقعة.. سخنة.. ماتنزلش أبدًا قبل ما تشرب عصيرك وتحط حاجة في بطنك.

أستوعب أنني ما زلت ممسكًا بيدها، أحاول جذبها ناحية فمي لألثمها لكنها تسحب يدها مربتة فوق يدي بقبضتها المضمومة.

- طب الدكتور قال ماتاكلش حاجة دلوقت وماتشربش حاجة، هو إداك محاليل وحاجات، بس أول ما تقدر تقوم، اشربلك واحدة عصير أنا سقعتهوملك في التلاجة.

تقولها ثم تهم واقفة لتخرج وتترك لي غرفتها، أكاد أقسم إنني لمحت شيئًا لامعًا بين أصابعها، ولكن الإرهاق غالبني، فنمت لعدة ساعات، تلك المرة دون أحلام أو كوابيس، لأستيقظ شاعرًا بالظمأ، وأقرر أن آخذ بنصيحة جدتي وأتناول واحدة من زجاجات مشروب الطاقة.

كان عقلي مشغولًا ما بين زيارة أمي وبين الشعور الذي يلازمني بالخزي حين تنتابني تلك النوبات وسط جموع من البشر، لا أحد يحب أن يبدو بمثل هذا الضعف والاحتياج، ثم ماذا كان هذا الحلم الغريب؟

أشعر أن ذلك الحلم حقيقيّ أكثر من أي شيء حلمت به من قبل. أنتزع جسدي من الفراش انتزاعًا، واعدًا أطرافي بالتحسن إن حملاني حتى المبرد.

تتصاع قدماي على مضض، مهددة إياي بالخذلان مع كل خطوة كي لا أنسى وعدي.

أتناول واحدة من عبوات العصير، وزجاجة ماء، وأجلس على كرسي المطبخ أمام طاولة في مكان جدتي المقدس.

أنزع غطاء زجاجة الماء، وأتجرع نصف الزجاجة قبل أن أعيدها مرة أخرى للطاولة، متجشئًا بصوت خافت، وشاعرًا باللعاب يعود لفمي الجاف.

لا يتناسب كل ذلك الجفاف الذي أشعر به مع برودة الشتاء وصوت الريح في الخارج.

بطرف عيني ألمح حركة. أقف سريعًا خوفًا من أن تكون حشرة طائرة، ولكني لا أجد أي شيء.. ربما كانت ظلالي تشاكسني.

لطالما كانت سيئة الخُلق، تهوى العبث معي، خاصة بعد نوبات الصرع. حركة أخرى توترني قليلًا ومرة أخرى أدور حول نفسي كالأحمق دون أن أجد سببًا لما تخيلته، ومع دوراني أشعر برعشة في يدي وكأنها تسأل عن الوعد؛ فأمد يدي ساحبًا زجاجة العصير؛ مثبتًا نظري في اتجاه ما هيئ لي أني رأيت من حركة، وأرفع الزجاجة إلى شفتي وحينها أراها... في زجاج نافذة المطبخ.

انعكاس امرأة تشير بإصبعها في اتجاهي وتهز رأسها بأن «لا».

تجمد الدم في عروقي، وانتفضت لتهوي الزجاجة البلاستيكية أرضًا، وأسعل بفعل شهقة الفزع التي صدرت مني.

أنظر خلفي باحثا عن تلك المرأة فاحمة الشعر واسعة العينين. لا أجد أحدًا بالطبع، لكني أقرر أن أتأكد من خلو الصالة والحمام وغرفة جدتي التي أقضي الليلة فيها والاطمئنان على جدتي أيضًا.

لا شيء.

مجرد خيال.

خيال محدد وواقعي ومفصل بشكل كبير. بالتأكيد.. مجرد خيال.

أنظف الأرض سريعًا وأعود إلى غرفة جدتي، يعلم الله كم أحتاج إلى النوم الآن، ولأول مرة منذ أن كنت طفلًا أترك مصباح النوم مضاءً.

في اليوم التالي أشعر أن كل ما حدث، وكل ما رأيته مجرد تأثير النوبة وآثار جانبية لأدويتي. فقد حذرني الطبيب مرارًا من أن الهلاوس عرض شائع لتلك الأدوية.

عارضت جدتي بشدة، نزولي اليوم للعمل، لكني أقنعتها أني بألف خير، وكررت على مسامعها ما تتلوه عليّ دائمًا أن الجلوس في الفراش يزيد من المرض.

أوصتني فقط أن آخذ علبتي عصير وليس واحدة لتساعداني على استعادة نشاطي.

أخذتهما معي لكن ما إن أمسكت بهما حتى شعرت أنه صار هناك ارتباط شرطي بين تلك الزجاجات وهلاوس الأمس.

طوال رحلة المترو وجدت نفسي أتفحص وجوه كل النساء وكأني أبحث عن وجه من رأيت في هلوستي.

الهلوسة لن تخلق وجهًا بالتأكيد.. ربما ذلك الوجه كان لواحدة من أقاربنا ممن عرفتهم صغيرًا في الفترة القصيرة التي قضيتها مع أمي وأبي.

ولكن لا، ملامحها كانت تخبرني أنها مألوفة أكثر من مجرد وجه عابر.

حينما وصلت إلى الاستوديو تعجبت لوجود ندى لليوم التالي على التوالي في المواعيد الصباحية.

نظرت لي نظرة لم أتبينها، ولكني كنت فاقدًا للطاقة، أو الرغبة في الحديث في الوقت الحالي.

كان وليد قد سبقني بالفعل في الوصول، وقام مشكورًا بإدارة جهازي قبل أن آتي موفرًا عليّ وقتًا أضيعه في إعداد الشاي أو المحادثات القصيرة مع المصورين.

- أنت مش كويس على فكرة.

- باين عليا للدرجة دي؟ بصراحة تعبت امبارح وجاتلي النوبة.

لا أحب أن أشارك مرضي مع الجميع، ولكن وليد كان يجب أن يعرف كي لا يفاجأ بي في يوم أصاب بتلك النوبة وأنا بجواره دون أن يكون مستعدًّا، وقد حرص منذ أن أخبرته أن يرتب جدوله وإجازاته معي دائمًا حتى لا أكون مناوبًا وحدي أبدًا، وأقدر له أنه لم يشارك ما أخبرته به لأي شخص آخر.

- يابني الدكاترة اللي أنت بتروحلهم دول بقر. أنا قلتلك في واحد قريبنا من بعيد كان عنده وقلتلك الحل.

على الجانب الآخر كان لا ينفك أن يعرض عليّ أقراص الترامادول كعلاج فعال من وجهة نظره الطبية الخبيرة بنوبات الصرع.

- سيبني أجيبلك بس حبايتين، وشوف هيريحك بس ازاي، وبعدين أنت مريض فمعلكش حرج فمفيهاش حرمانية يعني.

لم أحاول مجادلته، وأشحت برأسي بإشارة قد تعني أي شيء، فاتحًا برنامج الفوتوشوب، وباحثًا عن أول مهام اليوم المؤجلة منذ ليلة أمس.

بينما تُحمَّل الصورة أتردد قليلًا ثم أولي انتباهي لوليد لأسأله: مواضيع الجن اللي أنت بتتكلم فيها دي يا ديدا...

يلتفت إليّ غاضبًا: يا عم إيه اللي أنت بتقوله ده ع الصبح، قول بسم الله الرحمن الرحيم، استنى لما أشغل قرآن.

- آااه بسم الله الرحمن الرحيم طبعًا.. أنت سمعت عن حاجة كده اسمها مرض الوارثين؟

يبدو للوهلة الأولى وكأنه لم يسمعني.

- الوارثين؟ مش دي أغنية لسيد درويش باين؟

- أنت بتسمع سيد درويش يا وليد؟

- لأ بس إيمان البحر درويش غناها وأنا بحب إيمان البحر درويش.. استنى هدورلك عليها.

- لا يا وليد أنا بس عاوز أعرف لو أنت كنت سمعت الحاجة دي قبل كده.

- بص هو.. أنا مش فاكر حاجة زي كده، إشمعنى؟

- لأ عادي حاجة سمعتها كده وقلت أنت الخبير بتاعنا في الحاجات دي.

انتفخت أوداج وليد ونظر لي بابتسامة عريضة: أنت عارف مين اللي كان ممكن يخدمك؟ عمي الله يرحمه.

- الله يرحمه.

أقولها متنهدًا وأعود للتركيز على الشاشة أمامي، ولكن بالطبع لم تكن تلك إشارة كافية لوليد كي يتوقف عن الحديث.

- عمي ده كان علامة في الأمور دي، ده أنا اتشربتها منه، بس هو حياته كلها كان مافيهاش غير السعي ورا العلم ده. كان راجل عالم جليل.. كان يسافر جوه مصر وبره مصر لو سمع إن حد عنده

مخطوطة ولا كتاب. وعلاقته بالـ«بسم الله الرحمن الرحيم» كانت زي صحوبيتنا كده بالظبط. طب تعرف هو قابل مين مرة؟

محاولًا أن أبدي أقل قدر من الاهتمام دون أن أكون جلفًا: امم.. مين؟

- شمهورش.

تنطلق مني ضحكة مباغتة، ولكن حمدًا لله أن ضحكة أخرى غطت على ضحكتي وخطفت انتباهه.

كانت ندى تقف على باب الغرفة أو الممر الذي نعمل فيه حاملة كوبين من الشاي، انسكب أكثر من نصفهما مع ارتجاج جسدها إثر الضحكات.

تقول كاتمة ضحكاتها: أنا كنت بس عملت شاي وقلت أعملكم معايا.

تجاهل وليد ضحكاتها ووقف عن فوره يتناول أكواب الشاي بابتسامة أعتقد أنه أراد أن تكون مشرقة، ولكنه خلط بينها وبين كشف طبيب الأسنان.

- يا ريت يا أستاذة ندى لو تيجي كده كل يوم. والله ما حد بيدلعني الدلع ده إلا أمي.

نظرت له في استغراب ثم قالت: ربنا يخليهالك يارب.

ثم خرجت وعاد وليد إلى مجلسه واضعًا كوبي الشاي أمامه.

- أمك يا وليد؟ بتفكرك بأمك؟

- ماتحبطنيش بقى، دي مجيبتها للشاي دي ادتني أمل.

شعرت بقليل من الإهانة أن إبلاغي له يوم أمس بـ«ربنا يسهل» لم يكن كافيًا.

- كنا بنقول إيه يا خلُّود؟

أعض على شفتيّ وأنا أقول منظمًا أنفاسي وممسكًا دموعًا بدأت تتكون في عيني بصوت خافت: شمهورش.. عمك قابل شمهورش.

- ما أنا زيك بردو ماكنتش فاهم شمهورش ده يطلع إيه. ده ملك من أكبر ملوك الجن، وكان موجود أيام حبيبك النبي عليه الصلاة والسلام، وكان من الناس اللي بلغت الرسالة لأهل الجن.

استغربت أنه صار قادرًا على لفظ كلمة الجن دون خوف، ولكني لم أعلق.

فقط قلت: ما شاء الله!

- آه، أنت عارف بقى إن هو ملك المريخ؟

رغمًا عني استدرت لأواجه مرة أخرى لأسأله: كوكب المريخ؟

- آه.

أعض على لساني قبل أن أتجرأ وأسأل هل زار عمه شمهورش في المريخ أم أنه نزل له على الأرض.

- عمك بقى حكالك الكلام ده كله عن تاريخ شمهورش؟

- لأ تاريخ شمهورش أنا عرفته بعد كده، لكن هو حكالي عن معرفته بشمهورش، وأنا بردو ماكنتش عارف ده مين أوي، أنا أسمع اسمه لكن ماعرفهوش، بس لقيت بقى في كتاب من الكتب اللي كنا وارثنها عنه، كتاب مهم أوي والله يا خالد، لو اتعرف إن هو عندي والله يغتالوني.

لا.. لن أسأل من الذين سيحاولون اغتياله. هل أنهي تلك المحادثة التي جررت نفسي إليها؟

- ما تقولش كتاب شمس المعارف أكيد.

- لا للأسف أمي ماكنتش عارفة قيمة شمس المعارف وبعته ضمن الكتب اللي باعتها بعد موت عمي، اسمه البلهان، ده أغلى من أي حتة آثار. يتقدرله بملايين. وفيه تعاويذ وحكايات عن ملوك الجن تشيبك. منهم تعويذة ممكن تخليني ملك في يوم.

ألتفت إليه بكامل جسدي تلك المرة واضعًا يدي على رأسي دون أن أتكلم في تساؤل عما هو واضح.

فيضحك: لأ ماهو مش أي حد بقى يعمل التعاويذ دي. هو عمومًا اللي أنا فهمته من عمي الله يرحمه إن اللي بيعرف يعمل سحر عدد محدود من الناس في العالم كله، لإن دول اللي اتعلموا السحر من الملكين هاروت وماروت، وبيورثوا لولادهم وولاد ولادهم الموضوع ده. بس والعياذ بالله دايمًا بيجي معاه لبس من الـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، أو فقر أو مرض. حاجة كده تخليهم لا يكسبوا دنيا ولا آخرة، تحس إنهم بيورثوا مرض.

لا أنطق لعدة ثوانٍ بعد أن انتهى من استفاضته، وأتنهد للمرة الألف على ما أعتقد وأنا أسأله: بيورثوا مرض؟ مرض الوارثين؟

ينتبه إليّ قائلًا: إيه؟ تصدق ممكن!

- طب وليد أنا جاي معاك البيت النهارده عاوز أبص على الكتاب ده لو مايضايقكش.

قال مهللًا بعد أن احتسى رشفة من كوب الشاي: حبيبي ده بيتك هتنورني طبعًا.

ساد الصمت بعدها لعدة ساعات لم يقطعه سوى دخول المصورين لإفراغ كروت الكاميرات، وما إن هدأ ضغط العمل قليلًا حتى تثاءبت متمطيًا واستأذنت وليد أن يفسح لي كي أمر لآخذ استراحة قصيرة.

بجوار الاستوديو كان هناك مطعم سوري صغير متخصص في الشاورما، فرش مائدتين على الرصيف، مشكورًا يعطينا دائمًا تخفيضًا بحكم جيرة محل عملنا.

جلست على المقعد البلاستيكي، وتأملت قائمة الطعام قليلًا وإن كنت أعرف بالفعل ما الذي سأطلبه.

- فلافل في عيش سوري وتومية زيادة.

هز الواقف رأسه وأشار لعينيه الاثنتين دون أن ينبس بكلمة، وذهب لإحضار الطعام.

تخفيض أم لا في ذلك الوقت من الشهر لا يمكنني تحمل ثمن شطيرة شاورما الدجاج.

لا أحب الفلافل السوري حقًّا ولكن مع الكثير من التومية يمكنني تخيل أنني أتناول الشاورما.

أسرح في المارة، وفي رائحة سيخ الدجاج من خلفي، حتى يأتي صوت مقاطعًا لحظة الصفاء تلك: خالد.

ألتفت لأجد ندى تنظر إليّ بعينيها العسليتين في ترقب وكأنها على وشك إخباري بخبر مفجع.

- ندى، خير في إيه؟

تتخذ مقعدًا بجواري، وهي تقول والتوتر لم يفارقها: لأ أنا تمام مافيش حاجة.. أنا.. أنا بس كنت قلقانة عليك.

- قلقانة ع...

ثم استوعبت، بالطبع فإن منطقتنا صغيرة كفاية، ولا بد أن خبر سقوطي وسط الشارع قد وصل إليها.

- بص أنا عارفة إنك بتضايق وكده.. بس أنا والله عاوزة اطمن عليك بس.. إحنا جيران وزمايل.

أشيح بيدي آخذًا الأمر ببساطة: يابنتي تمام، أنا امبارح بس كنت قلقان إن حد في المحل يسمعنا إنتي فاهمة الدماغ. بس أنا الحمد لله هي وعكة كده وقمت على طول.

بدا عليها الاسترخاء قليلًا وهي تقول: أنا استغربت الحقيقة إنك جيت أنا ماكنتش متوقعة إنك جاي خالص.

- مش للدرجة دي يعني هما قالولك إيه اللي حصل؟

ترددت للحظة ثم قالت بحذر: أنت عارف الهبل يعني؛ حبة قعدوا يقولوا إنك زعلت ستك في حاجة، والتانيين آاااا... قالوا إن ستك هي اللي زعلت حد منهم.

لم أكن أتوقع أن ندى هي الأخرى تخشى من لفظة الجن!

هززت رأسي متفهمًا: إنتي بتصدقي في الحاجات دي صحيح؟

- أكيد مؤمنة بوجودهم.. مش قصدي حاجة والله بس...

مقاطعًا في سرعة رافعًا عنها الحرج: على فكرة اللي عندي ده مرض عادي بس طبعًا سمعة ستي إنتي فاهمة.

تهز رأسها في تفهم: بس والله عايزة اقولك إن كل الناس كانت قلقانة عليك امبارح، إنتوا سيرتكم دايمًا طيبة، وستك مابتردش حد أبدًا ربنا يباركلها.

سألت مستغربًا: مش إنتي مش مقتنعة باللي هي بتعمله؟ ربنا يباركلها في إيه بقى!

- مش مهم أنا أصدق ولا لأ، المهم إن اللي بيروحولها بيبقوا مصدقين، وهي بتحاول تساعدهم وعمرها ما خدت فلوس من حد.

لا أنكر أني في بعض الأحيان كنت أتمنى لو كانت تتقاضى أجرًا على كل تلك الزيارات والجلسات التي تتسبب في حبسي في غرفتي حتى انتهائها، وحتى في زياراتها المنزلية كانت جدتي تصر دائمًا أن أنتظرها في مقهى حتى انتهائها.

- سمعت إن حتى والدتك جت تزورك علشان تطمن عليك، ده اللي حسسني إن الموضوع كبير مش الكلام الفاضي اللي كانوا قاعدين بيقولوه.

غصة مباغتة في حلقي وأنا أرد عليها: لأ ماما جاتلنا قبل ما اتعب على طول، تلاقيها ماعرفتش لسه ولا حاجة.

غيرت الموضوع سريعًا قبل أن تسأل أي سؤال آخر خاص بأمي وأبي: هواا.. إنتي عارفة الواد اللي اسمه ميدو.. بودي.. أيوه بودي.. الواد الصغير ده عندكم في العمارة صح؟

تضيق عينيها وهي تحاول أن تستوعب ثم تلمع فجأة: آه الواد القرد اللي لاجئ في السايبر، ماله؟

أضحك وأنا أقول: مافيش يا ستي روحت إمبارح عند تيتة لقيته عايز استشارة.

يزداد لمعان عينيها وهي تضحك سائلة: ده كان عايز إيه؟ يفك عمل ولا يجلب حبيب؟

- لأ هو تقريبًا أمه قالتله هجيبلك العو، كان جاي لتيتة علشان تتفاهم مع العو، وتقنعه مايجيلوش.

ضحكة أخرى عالية وأجد يدًا تمتد أمامي لتضع شطيرة الفلافل.

أشير إليها إن كانت تريد طلب أي شيء فتهز رأسها قائلة: لأ أنا لسه يومي طويل هاكل متأخر.

أشعر بالحرج قليلًا من تناول الطعام أمامها، ولكن عصارة معدتي كانت قد بدأت في الهضم بالفعل منذ أن جلست وغرقت في نسائم الشاورما الشهية.

أنزع الورقة وأتناول أول قضمة لتنفجر التومية من جميع أطراف الشطيرة، سيكون من الصعب أن ألعق أصابعي أمامها. ينتابني بعض الحزن بسبب ذلك.

- الواد ده مش عنده ست سنين؟

جاء صوت ندى ليقطع خلوتي الروحية مع الفلافل والتومية.

أنظر إليها وأنا ألوكها في فمي.

- عوو إيه اللي يخاف منه؟ في حد بيقول العو دلوقت؟

أهز كتفيّ وأنا ألتهم قضمة أخرى.

- وبعدين العو ده عفريت ماخدش بربع جنيه تفكير، اللي هو حد سمع صوت الكلاب في الشارع بتعوي، فقالك بس دول بينادوا على عفريت اسمه العو.

توقفت عن المضغ لحظة.

- إيه ده هي العو جاية من «العواء» بتاع الكلب؟

قالت لي ببساطة: آه تقريبًا، أو صوت «عوو» اللي الأمهات بتعمله للبيبيهات وهما بيلاعبوهم المهم إنه حاجة بتخوف وخلاص.

أهز رأسي موافقًا وفمي قد امتلأ مرة أخرى لتستمر بعدها في الحديث عن زحمة المترو وطول انتظار الميكروباصات في الصباح حتى أنهي طعامي ونعود للاستوديو.

تجري الساعات سريعًا وينتهي اليوم، وأتصل بجدتي قبل الخروج من الاستوديو لأخبرها أني سأتأخر قليلًا حيث سأذهب لتمضية بعض الوقت مع وليد في منزله في فيصل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ليه خبيتي عليا؟

نظرت لي جدتي مطولًا، وبدا وكأنها ستقول شيئًا ما، ولكنها عدلت عنه، وتناولت زجاجة الماء التي تدسها جوارها دائمًا لتتذكر أن تشرب كما نصحها الطبيب، تتجرع منها جرعات سخية، ثم تمد يدها بالزجاجة ناحيتي فأتناولها في صمت لأملأها من المطبخ، وأعيدها إليها، تشير بيدها أن أجلس قبل أن تنطق أخيرًا: أنت بطلت تشرب العصير.

كانت لهجتها تقع بين منطقة وسطى بين إقرار لواقع وتساؤل. قررت ألا أجيب وأنا أربط للمرة الأولى بين الاضطرابات التي أمر بها وتوقفي المفاجئ عن تناول المشروب الرياضي الذي اعتدت شربه منذ الصغر.

أتساءل بحذر: هو إنتي بتحطيلنا فيه حاجة؟

تهز رأسها نافية وهي تقول: الملح اللي فيه.. الملح بيحبسه.. بيحطلهم حدود.

قشعريرة تسري في جسدي، حتى قبل لحظات جزء مني كان يرجو أن تنعتني بالأحمق، وأن كل ما استنتجته كان خيالًا محضًا، ولكن الآن وبأقل قدر من الكلمات فقد صار هناك «هم» و«أنا».

أزدرد لعابي وأنا أسأل: مرض الوارثين مالوش علاج؟

أرى اتساع عينيها، لا يستمر أكثر من لحظة: وهما اللي قالولك عنه؟

ذكرها لـ«هم» مرة أخرى أرسل قشعريرة أخرى لجسدي فضممت ذراعي في حركة لاإرادية وكأنني أحتضن نفسي وأنا أقول: حلمت حلم إني كنت عيان وأنا لسه مولود وإنتي جيتي لسعتيني بحاجة معدن مدورة وقلتي حاجة عن مرض الوارثين، والنهارده لقيت عند وليد اللي معايا في الشغل نسخة من كتاب قديم عن...

احترت في تسمية موضوع الكتاب، فأشرت بيدي للهواء وأنا أقول: عن الحاجات دي..

أومأت برأسها وهي تخرج زفيرًا ثقيلًا وكأن هناك صخرة على صدرها: والكتاب ده كان ليه اسم؟ وصاحبك ده جابه منين؟

- اسمه البلهان و.. كان وارثه من عمه.

لم يبد أن الكتاب قد أثار اهتمامها كثيرًا.

- وعرفت إيه من الكتاب وعاوز تعرف إيه دلوقت؟

ضايقني أن تكون هي من تقود الدفة وتُكمل استجوابي. فأنا من يبحث عن الإجابات، ولكني أجبت على أي حال: إن اللي بيحصلي ده لعنة ومرض موروث علشان حد من جدودنا كفر واتعلم السحر وهنفضل ليوم الدين يتولد فينا الملعون بالمرض.

- أنت فاكر جدتك كافرة يا خالد؟

كان السؤال مفاجئًا حتى إنه قد ألجم لساني. لا.. تيتة إبتسام ليست بكافرة.. لم أرها يومًا تنسى صلاة، ورغم حدة طباعها لم تكن سوى عون لكل من سعى إليها.

لا.. ليست بكافرة.

طال صمتي لتُكمل هي قائلة: الكفر اختيار يا خالد، ماحدش بيتولد كافر، واللي بيقولوا عليه مرض ده نعمة، لكن هنا دار اختبار، حتى النعمة بتيجي ومعاها حمل تقيل. لعنة الوارثين إن اختبارهم أكبر من أي مؤمن.. لعنة الوارثين إنك تكون عطشان وسط نهر عذب ممكن يرويك ولكنه زي تفاحة آدم. قوم معايا يابني...

أقف بصعوبة وأتبعها لصومعتها، لم تكن صومعة الجدة محرمة عليّ، لكني طالما كنت أهابها.

كانت تضم مكتبًا قديمًا، وكرسيًّا خشبيًّا، وفراشًا صغيرًا، ومكتبة متوسطة الحجم مليئة بالكتب القديمة وبعض العلب الصغيرة التي تحتوي على مواد نفاذة الرائحة، وأعتقد أن تلك الروائح هي أكثر ما كان يبعدني عن تلك الغرفة.

جلست جدتي على حافة الفراش، وطلبت مني إشعال بعض من البخور لتغيير الرائحة التي تعلم أنها تزعجني، ثم أجلس على الكرسي الخشبي مواجهًا إياها.

أخرجت من صدرها نظارة القراءة، ومدت بيدها لتسحب من تحت الوسادة كتيبًا صغيرًا خُطَّ باليد وهي تقول: جدنا الكبير أوي اللي اتعلم السحر، عمل خطية آه، بس ماكانتش إنه كفر، كانت إنه يأس.. لما راح يتعلم السحر قالوله.. قالوله على اللعنة اللي هتفضل في ذريته، لكنه كان يائس كان عايز يساعد أهله واتهيأله إنه مايستحقش رحمة ربنا، وإن الفرج لسه قدامه كتير. مرضنا يا خالد إننا بنشوف ونسمع اللي ربنا رحم باقي ولاد آدم منه. الدنيا مش إنس بس.

رفعت عينيها من تحت النظارة، وهي تقول: ومش جن بس...

ثم أكملت تصفح الكتيب وهي تتابع: وسط خلق ربنا اختبارنا إن كلمتنا مسموعة، الكلمة اللي بننطقها بتتسمع جنوب وشرق وبعيد والكلمة ليها سلطان لو تعرف إمتى تتقال، وزي ما في كلام يخلي ربنا يغفرلك، في كلام بيخرجك برة رحمته. وإحنا يا خالد اتكتب علينا نعرف الكلام اللي ينجي، واللي يساعد واللي يأذي ويكفر. الشياطين هتختبرنا كل يوم في عمرنا عشان ننطق بكلمة تاخد بيها روحنا لأسفل السافلين. خبيت عليك علشان كنت عايزة أأجل اختبارك، مع إني متأكدة إن من ساعة ما جري المرض في العيلة مافيش حد هيكون قد الاختبار زيك. النهارده هتقابل ورثك.. النهارده هتموت كل أحلامك.

انتصبت الشعيرات على جسدي، وهي تخرج من بين طيات الكتيب تلك العملة المعدنية، وتلقيها لي دون أن تنظر إليّ، التقطها في تلقائية ويشتعل صدري، ويتحول صوت جدتي لهدير يصم الآذان يرج كياني وهي تقول: واحد وعشرون دقة قلب ويخرج ساكن لم يدعه صاحب الجسد إلا وقد حظي بنيران اللظى.. هامسٌ أو باحثٌ عن لذة سيأتي صاغرًا في أرضنا.

في مرآة صغيرة بجوار فراش جدتي أرى وجهي يتغير.. وجهان هما وجهي، يتداخلان كطبقتي صور أقوم بتعديلهما على الفوتوشوب، وواحدة منهما يزداد وضوحها، وتبهت الأخرى. وأبدأ في التعرف على ذلك الوجه، تلك هي المرأة التي رأيتها منذ يومين في المطبخ، تلك من بحثت عن وجهها في كل الوجوه، أشعر بحنين تجاه ملامحها، وكأننا أصدقاء منذ عقود، ثم يأتي صوت جدتي مرة أخرى:

- أكبر باسم الله أمام كل من بغض ذكره. وألقي سلامًا على كل من كان من المؤمنين.

أرى شفتيّ تتحركان في المرآة.. لا ليست شفتاي بل شفتاها هي، ويخرج صوت أنثوي مرة أخرى أشعر به مألوفًا: وعليكم السلام.

تسأل الجدة: انطقي باسمك وعشيرتك.

- لا تحتاجين إلى كل ذلك يا إبتسام، لست هنا لأسبب الأذى.

- لو لم تكوني هنا من أجل أذى، فانطقي باسمك.

أرى وجه المرأة في المرآة ينظر يمينًا ويسارًا متأملًا في الغرفة.

تكرر الجدة: اسمك وعشيرتك.

يأتي صوت المرأة الدافئ مرة أخرى قائلًا: لا أشارك اسمي عادة مع الوارثين، من الصعب أن أثق في من يمكنه بكلمة أن يقيدني في ميثاق ظالم.

- آخذ منك عهدًا إذًا بألا يمس خالد ضرر.

- ذلك عهدٌ أسعد به. عهد علي بأن تفنى الروح كما فني الجسد، ألا يمس خالد ابن سهيلة بأي سوء، ويشهد عليّ خالقنا الواحد الأحد.

تتأملها جدتي في شك من خلف نظارتها السميكة ثم تهز رأسها في رضا وهي تسأل: طب اسم عشيرتك إيه يا بنتي علشان أعرف أناديكي.

أرى البسمة في المرآة ترتسم على ملامحها وهي تقول: ليس لي عشيرة، فأنا لست نفرًا من الجن. ولتسهيل الأمر فيمكن أن تدعوني «ليل».

تخلع الجدة نظارتها وتضيق عينيها وهي تتأمل في ليل، وتسأل بحذر: أما إنتي مش جنية إنتي إيه؟

لم يبد أن ذلك ممكن ولكنه حدث. ابتسامة ليل في المرآة اتسعت أكثر وأكثر لتصل إلى أذنيها وهي تقول: أنا ديبوك، وقبل أن تلقي بحفنة الملح في يدك، أريد أن أذكرك أنني تلبسته بالفعل منذ سنوات، فكل ما سيفعله ذلك الملح الخشن هو أن يؤذي عينيه.

- لأ، الديبوك مابيلبسش بشر.

تقولها جدتي وأنا أشعر بتسارع أنفاسها.

- إنتي كدابة.

- قد أعطيتك للتو عهدًا ترضينه، لست بكاذبة.

- لأ كدابة.. أنا مش هعرف أحس بوجود جن يعني؟

- هناك جن بالفعل يسكن خالد.. إنه ليس أنا.

- هو إنتوا كام واحد؟

- ثلاثة.

- تلت أنفار جن ع الواد!

- لا.. فقط واحد...

- والتالت زيك بردو يعني؟

- بحق العهد الذي أقسمت، حديثي عن الثالث سيؤذي الفتى.

- طب وإنتوا عاوزين من الواد إيه؟

- لا نريد شيئًا على الإطلاق. لعنة جعلتنا سكناء جسده، مثل اللعنة التي جعلت منه سجانًا.

- طب اسم الجني إيه؟

- لا أستطيع إخبارك بذلك.

أشعر بتوتر جدتي.

- طب بصي يا ليل.. ديبوك ولا جن ولا شيطان.. بعهدك أو من غيره هخسف بيكم الأرض لو حد فيكم أذاه. حتى لو روحي اتقطعت في جهنم.

- لن يكون هناك حاجة لذلك.

- طب ارجعي سكناكِ وكفي عنا أذاكِ.

ثم تمتمت بكلمات خافتة لم أميزها واختفت ليل من المرآة، وشعرت بأطرافي مرة أخرى.

أخذت عدة أنفاس لاهثة قبل أن أنطق بأول كلماتي.

- يعني إيه ديبوك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

-٢-

أجلس في غرفتي متأملًا الحائط بعين لا ترى، وبين أصابعي العملة المعدنية التي أخبرتني جدتي أنها تطلق عليها «المَشَمَّة».

أتحسس نقوشها وبعد لحظة من التردد أتمتم بكلمات أعيها وحروف: حرف الت...

يأتي الصوت الدافئ في رأسي: لا تحتاج لتعويذة لطلبي.

أكاد أسقط المشمة من يدي، ولكني التقطتها بيدي الأخرى وضممتها لكفي ليأتي صوت ليل مرة أخرى قائلًا: ثم إنني أوضحت أن «ليل» ليس باسمي حقًّا، فلا سلطان لك عليّ به.

متحرجًا أقول: لأ أنا مش بحاول أسخرك ولا حاجة.

أشعر بالبلاهة وأنا أتحدث بصوتٍ عالٍ لصوتٍ يأتي من رأسي.

يأتي ردها: أفهم ما تحاول فعله، فلا تقلق فأنا حاضرة دائمًا.

أهز رأسي ثم أقول بصوت عالٍ مرة أخرى: آه.. آه.. تيتة فهمتني ده. وفهمتني إنتي إيه بردو.

- ظننتها لا تصدقني.

لم أجد ما أجيبها به، فانتقلت لسؤالها: هو.. إنتي كنتِ عايشة في مصر برضو قبل اما.. تبقي ديبوك؟

- ما الذي يجعلك تفترض هذا؟

- مش عارف يعني.. علشان بتتكلمي عربي.. افترضت إنك من مصر أو من دولة عربية بس من زمان شوية.

ثانية من الصمت قبل أن يأتي صوتها قائلًا: لا.. لم أكن أعيش في مكان تعرفه. معرفتي باللغات تأتي من عمري، فأنا أقدم مما تتخيل. يمكنك أن تقول إني هنا منذ بدء الزمان، أعرف كل الأسماء وكل الكلمات منذ أن خُلق الإنسان.

- أنا مش فاهم قوي، مش المفروض الديبوك ده بيبقى روح إنسان اتلعن؟

- من المفترض نعم...

- أيوه يعني إنتي كنتي في يوم إنسانة؟

- توقف عن القلق على ما كان، فأنا لست كأي ديبوك عرفته جدتك من قبل.

- ماهي قالتلي إن الديبوك عادةً مابيلبسش إنسان، يا إما بيلبس حيوانات أو جماد، فأكيد إنتي مش زي الباقيين.

- وذلك يخيفك بالطبع.

أشعر ببسمة مريرة على شفتيّ قد ارتسمت وأنا أقول: مش هو ده بس اللي مخوفني يعني.. فكرة إن في حاجات أنا آسف قصدي مخلوقات بتشاركني جسمي، ده مخيف حبتين.

- لطالما شاركناك هذا الجسد. فعلمك بوجودنا الآن لم يغير حقيقة بل سيعود بنفعٍ عظيم. وليس عليك أن تقلق بخصوص الآخرَيْن. أنت لست في حاجة إليهما ولا هما في حاجة إليك.

- قصدك إيه بـ«نفع عظيم»؟

- تواصلنا الآن ولقاؤنا لم يأتِ كصدفة عبثية، ذلك قدر.. صحوتي جاءت لتمد لك العون في رحلة لدرء شرٍّ.

أرفع رأسي منتبهًا وأنا أسأل: شر إيه؟

- تحتاج لشربة من الماء. قم.. واروِ عطشك.

ما إن وقفت حتى وجدت أنني لست متوازنًا، أستند إلى الأثاث في طريقي، وأنا أراجع في ذهني إن كنت قد تناولت أي طعام اليوم، ثم ألمح تحت كرسي السفرة المواجه لباب المطبخ ورقة صفراء مطوية. أتناولها شاعرًا أن لها ملمسًا غريبًا؛ فهي ليست ناعمة كورق الطباعة أو الدفاتر؛ بل أشبه في اللون والملمس إلى خشب رقيق.

أجلس على كرسي السفرة وأفرد الورقة المطوية لأكتشف أنهما ورقتان رسم عليهما بخط أنيق وحبر باهت، كانت رسومًا أشبه بالحروف ولكنها لا تعني أي شيء. تتشابك فتشعر أنها في بعض الأجزاء تكون حرفًا آسيويًّا قديمًا، ولكنها في أجزاء أخرى مجرد خطوط طولية وعرضية لا تبدو مثل أي شيء، ثم تقسيم هندسي في المنتصف.

حين أحدق حقًّا إلى ذلك التقسيم الهندسي يبدو لي وكأنه يتحرك، يبدو أشبه بنهرٍ، ويأتي همس ليل في أذني: ارو عطشك.

«واحد وعشرون»

«عشرون»

في رأسي

«تسعة عشر»

«ثمانية عشر»

تأتي همسات بصوت ليل

«سبعة عشر»

«ستة عشر»

أرقام تُتلى

«خمسة عشر»

«أربعة عشر»

تنازليًّا

«ثلاثة عشر»

«اثنى عشر»

أشعر بألم في صدري

«أحد عشر»

«عشرة»

أمد يدي داخل قميصي لأشعر بألم على جلدي وكأنه يلامس شيئًا يحترق.

«تسعة»

«ثمانية»

أفك أزرار القميص بيد واحدة، ويدي الأخرى لا تزال متمسكة بالورقة.

«سبعة»

«ستة»

على صدري وفي الضوء الخافت أرى علامة حرق ملتهبة.

«خمسة»

«أربعة»

ألقي نظرة على قميصي بسرعة لأتأكد أنه لا يوجد شيء عالق به قد تسبب في ذلك الحرق.

«ثلاثة»

«اثنان»

ولكني أجد أن العلامة في صدري تضوي وكأنها جمرة مشتعلة.

«واحد»

ثم يضرب البرق مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«لا جديد».. أول فكرة تتكون في ذهنه، حتى قبل أن يفتح عينيه.. لا يزال في الفراش نفسه، الذي أنهى فيه ليلته بالأمس.

حوله الحيطان نفسها، تتسرب لأنفه الروائح ذاتها، ويتملكه الإحساس الذي أصبح مألوفًا.. «الألم».

«لماذا يصر قلبي على النبض ولا يتوقف عن ضخ الدماء في عروقي ويوقف معه الألم؟».

يمد يده باحثًا عن مشايته الحديدية وهو لا يزال رافضًا فتح عينيه.. لو شاء يمكنه القيام بثلاثة أرباع روتينه اليومي دون الحاجة للإبصار. لتلك الدرجة عاهد الموجودات من حوله، أيامه مجموعة من المهام الرتيبة يُنفذها في آلية تامة.

ما إن يجد ذراع المشاية المعدنية حتى يأخذ نفسًا عميقًا ويتهيأ للهول القادم.. «لا مفر.. يجب أن تفعلها يا بطل، فالحمام لن يأتي إليك».

يستجمع شجاعته ويبدأ في تحريك قدميه لينزل من فوق الفراش، ويأتي الألم كعشرات الصواعق تمتد من الفخذ إلى أعلى رقبته. يكاد يشعر بطنين في أذنيه من شدة الألم. لا يفتح عينيه إلا أمام مرآة الحمام، وقد خاض ملحمة عظيمة ليصل إليه.. متأملًا تجاعيد وجهه وذقنه النابت، الذي يكاد يقسم إنه حلقه منذ أقل من يوم، أو رُبما تشابهت عليه الأيام. يفتح المياه، ويتناول نصل الحلاقة العتيق، أحادي الشفرة.. يتخلص من الشفرة المستعملة، ويمرر النصل تحت الماء الجاري للحظات طالت، متأملًا وجهه مرة أخرى في المرآة، وكأنه نسي ما يريد أن يصنعه. قد مَلَّ من كل شيء. يطلق زفيرًا طويلًا، ويخرج شفرة جديدة ليبدلها.

ثم يدوي جرس الشقة مناديًا إياه لرحلة أخرى تهلك أوصاله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يغلف الضوء كل شيء، رؤيته وسمعه وحتى أنفاسه. كان خالد يسمع الضوء، ويشمه. كان مغلفًا به، أو جزءًا منه. فكرة واحدة دارت في عقله: أين المهرب؟

لماذا لم يستيقظ بعد هذا الكابوس؟

لم يكن كابوسًا بالضبط؛ إذا تغاضينا عن كل الألم الذي شعر به وكأنه جسده، ولكن لا وقت للتفكير في ما رآه. فكل ما يسيطر على فكره هو خوفٌ بدائي أولي. هل هو حبيس الضوء فاقد لكل إحساس الآن؟ للأبد؟ أم...

«لم يرو الظمأ ما زال هناك المزيد لتراه».

«إحدى وعشرون دقة قلب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه حقًّا عالم قاسٍ.. تعلمت سريعًا منذ الصغر مدى قسوة العالم. لطالما كنت رجل المنزل في غياب الأب أو «الحاج» كما يُطلق عليه أهل المنطقة.. والذي كان دائم الغياب.

تعلمت من أمي أيضًا أن أقسو على أختي الكبرى، حتى لا «يفلت عيارها»، وأن الحاج مهما غاب قد ترك رجلًا بالبيت والرجل الحقيقي يعبر عن حبه بالقسوة.

وحتى حين يكون الحاج حاضرًا فلا أزال أتمتع بمعاملة خاصة كالرجل الثاني في المنزل، لكنني تعلمت ألا أتخطى الرجل الأول. يوم حاولت تهدئته أثناء تأديبه لأمي؛ تلقيت ضربًا مبرحًا منه بحزامه الجلد، الذي أهداه له عمي أثناء زيارتنا بعد قدومه من إيطاليا، ولكن أهم ما تلقيته يومها كان درسًا ألقاه الحاج على مسامعي بعدما اصطحبني لخياطة غرزتين في رأسي.

«اللي يصعب عليك يفقرك» لقد حرصت على أخذ ذلك الدرس إلى القلب.

لم يرق قلبي لحال أي شخص من يومها فطالما آمنت بمقولته المفضلة «مافيش حد غلبان».

مما أكسبني سمعة لا بأس بها في المنطقة؛ بكوني الشخص الذي تريد التحدث معه لقضاء أي «مصلحة»، ومصلحة اليوم كانت من «صبحي».

كل المطلوب توصيل لفافة، واستلام مبلغ نقدي من عجوز، يسكن في منطقة ليست ببعيدة..

في الأغلب تحتوي على مخدرات.

يفتح الباب عجوز يبدو أنه استيقظ الآن...

- صباح الفل.. حاج جلال مظبوط؟

يهز الكهل رأسه بالإيجاب، فأبتسم له منتظرًا أن يسمح لي الشيخ بالدخول.

أعبث بشعري المحلوق بطريقة يبدو أنها تثير تحفظ الحاج جلال قائلًا: طب إيه يا حاج؟.. أنا معايا الحاجة.

تمر الثواني كالدهر وأنا أنتظر أن يحرك جلال مشايته سامحًا لي بالدخول.

أدخل إلى الشقة القديمة التي يبدو وأنه قد مر زمن طويل منذ تنظيفها.

أتحرك بأريحية متأملًا الصالة متوسطة الاتساع، الموضوع بداخلها صالون مذهب قديم، وسجادتها القديمة المهترئة.. وعلى امتداد بصري أرى طاولة سفرة كبيرة عتيقة محاطة بكراسي ضخمة، وفوق الطاولة وضع طبق زجاجي به عدد قليل من أصابع الموز التي بدأ يغزوها اللون البني، وخلف السفرة كان دولاب أطباق ذو واجهة زجاجية وتمتد منه منضدة رخامية موضوع عليها صندوق مذهب في حجم جهاز الفيديو الذي أحضره عمي من إيطاليا لكنه لم يتمكن من تشغيل الأفلام التي استأجرناها من نادي الفيديو، لأنه كان «نظام أوربي» كما شرح لي عز العامل في نادي الفيديو؛ فظل مهجورًا تحت التلفاز يعمل كمغناطيس للأتربة.

يشير العجوز لي داعيًا إياي للتوجه ناحية مقاعد السفرة.

أتحرك صوبها غير منتبه لانتهاء سجادة الصالة المهترئة، لكن خشخشة البلاستيك تحت قدمي تجعلني أتوقف ناظرًا تحتي؛ لأفاجأ بمشمع كبير يغطي ما ظهر أمامه من الشقة.. أتساءل بصوتٍ

عالٍ: هو أنت بتبيض ولا إيه يا حج؟

التفت ناحية العجوز الذي يغمغم بشيء ما غير مفهوم يدل على الموافقة «هل أصابه الخرس أيضًا؟»..

أجلس فوق أحد مقاعد السفرة متنهدًا، مفكرًا في ذلك الكهل العجوز، الذي يبدو لي وحيدًا، دون عائلة، أين هم؟.. هل تركوه؟.. هل له أبناء؟.. أم لم يتزوج من الأساس؟..

يدور درس والدي في رأسي من جديد «اللي يصعب عليك يفقرك».. لماذا يشغل رأسه من الأساس بأحوال ذلك العجوز؟!.. فهو بالكاد يستطيع الحركة والكلام لكنه بكل تأكيد يستطيع الصرف على مزاجه.

يجلس العجوز إلى جواري، فأعود لتأمل ملامح التعب على وجهه، وارتعاشة يديه.

وأقرر عملي «واجب» معه، فأخرج لفافة تبغ وأشعلها، مُقدمًا لجلال لفافة أخرى.

يمتنع العجوز عن أخذها ملوحًا لي، مُبعدًا الدخان الذي ضايقه.

أسخر منه في داخلي، وأقول: لا مؤاخذة يا حج.. أصل دي والله سجارة الريق، أنا مابصحاش دلوقت خالص، بس علشان خاطرك وخاطر صبحي أنا جيتلك في معادي.

يمد العجوز يده ناحية طبق الموز، ليفرغه فوق الطاولة، مقربًا إياه مني كي أنفض فيه رماد لفافتي.

- عدم لا مؤاخذة.. أتعبك معايا في كوباية شاي؟.. أصلي زي ما قلتلك لسه صاحي.

ملامح العجوز الصلبة لم تُمكنني من معرفة ما إذا كان مرحبًا بذلك أم لا.. على كل حال فأنا أعرف جيدًا أنني سأستهلك عقدًا من عمري في انتظار أن يأتيني ذلك العجوز بكوب من الشاي.

أنتظر توجه العجوز ناحية المطبخ لأتحرك في خفة ناحية الدولاب مخرجًا هاتفي المحمول الذي أعتز به كثيرًا - فقد كنت أول من يحمله في المنطقة- طالبًا أحد الأرقام...

- بقولك يا طه، عايزك في مصلحة لوز.

يأتي صوت من الطرف الثاني متسائلًا:

- أنت مش قلت إنك مسحول النهارده في حوار مع أسطى مارادونا؟

أفتح واحدًا من الأدراج الثقيلة الملحقة بالدولاب وأنا أهمس في الهاتف:

- ما هو في مصلحة ممكن تطلع لينا من الحوار ده.

- خير...

- أسطى ماردونا بعتني المعادي لراجل كهنة.

- هي المخدرات بقت بتطلع دليفري؟

لا أجد سوى أطقم طعام في الأدراج لن يسهل حملها فأغلق الدرج وأنقل الهاتف على أذني الثانية وأنا أجيب:

- فكك بس وركز معايا، جدو ده شكله عايش لوحده، وبيته مرشق أنتيكات.

- يا شهاب احنا مش عاوزين مشاكل مع أسطى مارادونا، وطالما بعتك ليه مخصوص من الهرم، يبقى أكيد زبون مهم.

أفتح الصندوق المذهب في سرعة لأجد أنه لا يحوي سوى أوراق قديمة فأغلقه سريعًا.

- أنا ليا صرفتي مع مارادونا يا سيدي بس أنت قابلني النهاردة.

- ماشي..هخلص واستناك ع الفيروز.

- حبيبي.

ألتفت ناظرًا خلفي لأجد جلال يتحرك بشكل عسير ناحيتي، حاملًا صنية صغيرة فوقها كوب الشاي، مسندًا إياها فوق مشايته الحديدية.

أحاول السيطرة على ارتباكي منطلقًا اتجاه جلال: عنك أنت يا حج.

آخذ منه الصينية، مجيبًا عن سؤال لم يطرحه من الأساس: لا مؤاخذة يا حج بكلم صاحبي مبيض.. ممكن يخلصلك الليلة دي في يوم، وآااا واد صنايعي، وعلى فكرة أسطى مارادونا بردو يعرفه اسمه طه.

يهز الرجل رأسه في امتنان.. أعود لأجلس فوق الكرسي من جديد، مفكرًا في ما قد يكون سمعه العجوز.

أرشف الشاي الساخن بهدوء محاولًا تهدئة أعصابي.. على الأرجح لديه أيضًا صعوبة في السمع.

أطمئن نفسي أنه حتى لو شك في أي شيء ما الذي سيفعله؟ سيبلغ عن من جاء ليحضر له مخدرات؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعود لي الرؤية.

- أرويت الظمأ؟

يأتي صوتها مع استيعابي لمجلسي على كرسي سفرة بيتنا.

أحاول تنظيم أنفاسي المتسارعة، ثم أنظر في يدي للورقة الصفراء ذات الطلاسم، وأتحسسها مرة أخرى دون أن يحدث أي شيء.

أحاول أن أمسكها بكلتا يديّ.. لا شيء أيضًا.

يأتي صوت ليل: قد جف هذا النهر، وازداد العطش.

- إيه اللي حصل؟ إيه اللي أنا شفته ده. الصوت اللي كان بيكلمني على التليفون.. قصدي اللي كان بيكلمه ده كان طه! أنا كنت بحلم؟

- لا.. لم يكن ذلك حلمًا. قد شربت من نهرٍ دنس.

- لأ أنا مش فاهم حاجة. فهميني أرجوكِ من غير ألغاز.

- طالما تشاركنا الوعي، أذيقك أيضًا من أنهار الحياة.

- يا ليل.. أنا مش فاهمك... أنا لا أستطيع فهمك.

أسمع صوت تنهيدتها قبل أن تقول: الأمر بسيط.. حين تتدخل الشياطين في عالم الإنس يتركون أثرًا يسري كالنهر.. نهر دنس، وكل من تأذى بألاعيبهم وسحرهم يترك أثرًا تحياه أنت كرؤية.

- يعني اللي أنا شفته ده حصل فعلًا! بس إيه دخل الشياطين في الموضوع؟

ثم أنتبه لوجود الورقة التي في يدي فأتركها كالملدوغ وأنا أسأل: الورقة دي عمل ولا إيه؟

- لا، ليست كذلك. ولكن اللقاء الذي رأيته بين العجوز وصاحب طه كان تخطيطًا شيطانيًّا. كلاهما مسهما الشيطان ليتركا نهرًا كذلك.

- هو الواد صاحب طه ده نفسه شكله شيطان تفتكري عمل حاجة في الراجل الكبير؟

- ذلك غيب لا أعرفه، ولكني أريدك أن تعرف شيئًا مهمًّا؛ تلك الأنهار ما إن تشرب منها فإن صاحب النهر وشيطانه يعرفان ذلك. الشيطان يفهم ما رأيته، والإنسي لا يفهم سوى أنك تعرف سره وخطيئته؛ فاحذر.

- أنا كده كده مش عايز حاجة من حد، أنا عايز بس أعرف إيه اللي حصل لطه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبيباصيها لـ(كرشة) في نص الملعب، ويستلمها منه بحرفنة، ويرقص واحد والتاني، لعيب يا (كرشة).. ويشوط وهيجيب جون.. وجون.. وجوون..

في انتظار أن ينزل وليد من بيته، أراقب ذلك الفتى السمين، الذي يهاجم ويدافع ويحرس المرمى ويُعلق على الماتش وحده بكرة فسفورية تحتاج لدفقة أو دفقتين من الهواء كي تصلح للعب.

أضع يديّ على وسطي متنهدًا، رافعًا رأسي للسماء متضرعًا لأي من السحابات أن تمر فوقي ولو للحظات لتحجب الشمس عن قفاي.

أنزل بعيني لأفاجأ بالفتى السمين واقفًا في مواجهتي وقد وضع الكرة تحت إبطه ويقول شيئًا موجهًا حديثه لي، لم أفهمه تمامًا لأنه كان يفرك أنفه وهو يقوله.

- إيه؟

- أنت واقف مستني مين هنا؟

أقول له متوترًا وقد شعرت أنه قد ضبطني متلبسًا لا أدري بماذا بالضبط ولكن ذلك ما أشعر به.

- مستني وليد.

ينظر لي متشككًا مرة أخرى وهو يعيد فرك أنفه: وليد اللي في الخامس؟

- آه يا حبيبي أنا زميله في الشغل.

- طب عمو عمو.. تعرف تنزلي اليابانية بالعربي؟

قبل أن أجد فرصة للرد عليه، يأتي كف وليد صافعًا قفا الفتى وهو يقول: ياض بطل جليطة ع الناس. اطلع شوف أمك عايزة إيه.

يقول الفتى مدافعًا عن نفسه: لا والله يا عم وليد أنا كنت بسليه لحد ما تنزل.. مش كده يا عمو؟

هززت رأسي موافقًا، ولكن الفتى لم يرَ ذلك وقد انشغل بالشلوط الذي أطلقه وليد مستهدفًا مؤخرته.

- يلا يا ريس نقضي مصلحتنا مش عايزين نتأخر.

قالها وليد جاذبًا ذراعي متجهين ناحية شارع الثلاثيني.

- هنركب حاجة؟

أطلقت تساؤلي وأنا أهرول خلف وليد لأماثل سرعته.

- لا يا عم المشوار خطوتين.

في قرارة نفسي كنت أعرف أن كل المشاوير هي خطوتان في عالم وليد السحري حيث الأرض كلها قرية صغيرة يمكن أن نصل إلى أطرافها راجلين، واستخدام أي نوع من المواصلات هو إهانة فجة لنعم الله علينا.

بعد ما يقارب الثلاثين دقيقة من التجول في حواري ومنعطفات شارع الثلاثين الصاخبة في ذلك الوقت من الظهيرة لم أجرؤ على التذمر إذ إن الشوارع في أغلب الوقت كانت أضيق من أن يدخلها ميكروباص.

التفت وليد إليّ فجأة ليقول: لأ بص عايزك تفرد ضهرك كده، وتخشن صوتك.. إحنا رايحين نقضي، لو حس إنك نايتي هيضرب سعر في العالي.

- وليد أنت مش قايل إنه صاحبك؟

- أيوه يا عم بس ده شغل. وأنا مش هاجي معاك كل مرة.

الحقيقة هي أنني لم أكن أنوي القدوم مرة أخرى مع وليد أو هكذا أتمنى.

فوجودي هنا لهدف محدد؛ لم أشاركه مع وليد.

- بص أهو هو قاعدٍ في السنترال ده.

كان السنترال ضيقًا، طليت جدرانه باللون الأخضر الباهت، ومكون من ثلاث كبائن ضيقة تشغل إحداها امرأة ترتدي عباءة سوداء منهمكة في حديث يصل كاملًا إلينا رغم غلقها باب الكابينة، وعلى يمين المدخل جلس شاب نحيف أكرت الشعر، تهللت أساريره حين رأى وليد، ليدور من خلف مكتبه متبادلًا السلامات والقبلات معه.

- درش، ده خلُّود أخويا الصغير اللي جاي يقضي المصلحة.

يغمزه مصطفى عن فوره في كتفه مشيرًا بطرف خفي للسيدة التي تشغل الكابينة وهو يقول: طب اتقل سيكة تاخدوا واجبكم الأول.

ثم صفر مناديًا فتى من المقهى المجاور ليحضر كرسيين خشبيين ويسألنا عما نشرب.

دقائق من تبادل الحديث عن أحدث الألعاب التي يمكن لوليد أن يجلبها لمصطفى لتجربتها على جهاز الكمبيوتر الخاص به، وتأكيد وليد عليه أنها لن تعمل بكفاءة حيث يجب عليه أن يحدّث كارت الشاشة.

ما إن أنهت السيدة مكالمتها، حتى أشار إلينا مصطفى أن ننقل كرسيينا للداخل بجوار مكتبه، ثم جلس على كرسيه وفتح واحدًا من الأدراج كان يحتوي على كتاب لا تحزن لعائض القرني، ومن بين طياته أخرج شريط ترامادول في خفة ثناه ثم وضعه بين كارتي شحن مستخدمين، وأحكم عليهما برباط مطاطي قبل أن يدسهما في يد وليد وهو يقول:

- الحساب وصل يا كبير.

- لا يا باشا مافيش الكلام ده الشغل شغل، علشان الراجل يعرف يقصدك تاني.

- عيب يا عم وليد الكلام ده، أنت قلتلي الراجل ده أخوك وعايزه علشان مرض مش علشان يعمل بيه دماغ، يبقى ماعنديش أصل لو خدت منك حاجة.

خليط من المشاعر المتضاربة بداخلي؛ كنت أعرف أن مصير ذلك الشريط سيكون القمامة ما إن أصل البيت، وشعور بالحبور تجاه تعريف وليد بي كأخ أصغر، وتقدير لشهامة صغار تجار المخدرات؛ لذا فقد كان من الصعب عليّ أن أنطق بالسؤال القادم الذي جئت من أجله.

- معلش يا مصطفى أنا بس عايزك في خدمة تانية، وأنا عارف إني هبقى تقلت عليك.

- عنيا ليك يا عمنا، ده أنت جاي من طرف الغالي.

- أنت تعرف حد اسمه أسطى مارادونا...

ولم أحتج إلى وصف أكثر من ذلك وقد رأيت الإجابة في عينيه وقد امتقع وجهه، وقام منتفضًا من على مكتبه ليغلق أبواب السنترال، ويلتفت إلينا قبل أن يجد وليد الفرصة لأن يستفسر مني عن شيء.

- جرا إيه يا وليد؟ أنت جايب راجل يعملي كمين؟ عاوزين إيه من أسطى زفت أنا بطلت شغل معاه من زمان.

اتخذ وليد قرارًا سليمًا بأن يترك الحديث لي.

في سرعة قلت: يا مصطفى الموضوع أبسط من كده، أنا بس جه على بالي إن في حد قريبنا كان يعرف واحد من اللي شغالين معاه، وكانوا على طول مع بعض يعني، وقريبنا ده اختفى ومش عارفين سكة صاحبه، الموضوع ولا فيه كمين ولا فيه أي حاجة.

سحب مصطفى علبة التبغ من على المكتب ليشعل سيجارة، وهو يقول متعصبًا: لأ بص يا برنس أنت كان ممكن تجيلي سكة، وتقول الكلام ده، وأنا أخدم عم وليد بعنيا، بس كده مش تمام.

- يا عم والله العظيم أنا ماقصدي حاجة، الموضوع ماكنش في بالي، وماكنتش جاي علشانه، أنا بس لما لقيت وليد بيقولي قد إيه أنت راجل جدع وفي معزة أخ فقلت أسألك لو سمعت حاجة أو تعرف حد، وخلاص اعتبر إني ماسألتش.

جاء صوت وليد أخيرًا ليقول:

- في إيه بس يا درش أنا بقولك خالد ده معايا كل يوم ودخلنا بيوت بعض مش قلق خالص، وبعدين هو سألك سؤال مش عاوز تجاوب خلاص يا أخي.. يا عم خد حساب حاجتك.

يتنهد مصطفى: يا وليد أنا مش شاكك فيه يعني أنا مش عبيط، أنا بقول بس الطريقة، حسيت بس إنه بياخدني على حجره، وبعدين أنت معاك حق يعني أنا زودتها، الراجل شكله ابن ناس، بس أنا مكهرب بقالي كام يوم، صاحب قريبك ده وقريبك ده اسمهم إيه؟

أجبت على الفور: قريبي اسمه طه، وصاحبه اسمه شهاب، وماعرفش عن صاحبه حاجة غير إن كان ليه عم في إيطاليا، وأبوه ميت وعايش مع أمه وأخته الأصغر منه.

يحك مصطفى رأسه بعض ثوانٍ قبل أن يقول:

- لأ ماعرفش اللي أنت بتقول عليه ده، هما ساكنين جنب أسطى مارادونا في الطالبية برضو؟

- أنا ماعرفش شهاب ساكن فين، بس طه آه، كان ناحية فيصل.

يحك رأسه مرة أخرى قبل أن يجلس على الكرسي الخشبي الذي كنت أشغله ويلقي بسيجارته مطفئًا إياها تحت أقدامه وهو يقول: أنا مش عارف أقولك إيه أنا كنت عايز أخدمك بس أنا ماعرفش شهاب ده، يمكن حد جديد بعد ما سبت الشغل مع أسطى مارادونا.

- طب ما تقولي على سكة أسطى مارادونا ده.

- عنده محل سروجي في ترسا، بعد سوق فكيهة كده عند سوق السيراميك، بس خلي بالك الراجل ده مجنون ومؤذي، المحل بتاعه اسمه سروجي الحج توفيق.. هو اسمه توفيق.

هززت رأسي ممتنًّا وتمتمت ببعض كلمات الشكر، تبادل هو ووليد الأحضان على أثرها مرة أخرى على وعد بلقاء.

لم يتحدث معي وليد طوال الطريق، عائدين لمنزله، متوقعًا أني سأصعد معه لنتبادل الحديث عما دار، ولكن ما إن وصلنا حتى أخبرته أني قد أنهكت اليوم، وحري بي العودة للمنزل.

حاول أن يثنيني عن ذلك، وأن نجلس على أي مقعد لنتحدث قبل رحيلي، ولكني شكرته وودعته لآخذ أول مواصلة إلى ترسا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أترجل من الميكروباص قبل سوق السيراميك، وأبدأ في سؤال المارة عن محل السروجي الخاص بالأسطى مارادونا، بعضهم لا يجيبني على الإطلاق، والآخر يشير لي إشارات مبهمة ويدعو لي بالهداية، وحين أجد المحل أخيرًا أستطيع تمييز الأسطى مارادونا إذ إنه بالتأكيد الجالس داخل المحل يدخن حجر القص، وينظر إلى صبيانه من حوله بالكثير من الاشمئزاز.

أدفع الباب الزجاجي للمحل، وأتجاهل العامل الذي عرض المساعدة، مقتربًا من الأسطى مارادونا.

يشد نفسًا من الأرجيلة قبل أن ينظر لي بطرف عينه وأنا ما زلت أفكر عما سوف أسأل عليه.

أأسأله مباشرة عن شهاب؟

لم يدع لي فرصة للتفكير وهو يقول لي: إيه يا عم هتاخدلي صورة! عايز إيه!

متوترًا أقول في سرعة: أنا.. أنا.. صاحب.. صاحب شهاب.. وبقالي كام يوم كده مش لاقيه وجيت بس اسأل عليه عندك يا أسطى مارادونا.

يترك لاي الأرجيلة: آه بقى أنت جاي تصيع. أنت شهاب بعتك علشان يجس النبض صح؟ من ساعة ما اختفى.

يزداد توتري وأنا أقول: لا يا أسطى مارادونا ده مارجعش من ساعة المشوار اللي أنت بعته فيه. أنا كنت عاوز بس آخد منك حتى العنوان أروح أسأل عليه هناك ليكون حصله حاجة.

- ومين قالك إن أنا بعته بقى في مشوار؟

أتردد لحظة قبل أن أقول: شهاب.. شهاب كان قايلي.

- آه، إذا كان شهاب نفسه ماكنش يعرف إني كنت هبعته أم مشوار يومها.

قبل أن أجد فرصة للرد أجد أن الأسطى مادارونا قد وقف ممسكًا إياي من تلابيبي.

أرى تموجات في يده القريبة من وجهي، أشعر أني رأيتها من قبل.

أضع يدي في جيب السترة متحسسًا المشمة لعلي أحصل على إرشاد من ليل.

إحدى وعشرون خفقة قلب

ويضرب البرق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان كابوسًا متكررًا، بدأ يزورني منذ الطفولة، على امتداد وعيي لا أستطيع أن أتذكر وقتًا لم أر ذات الكابوس بتفاصيله على الأقل مرة واحدة في الشهر. قد تمر بي أيام يتكرر فيها الكابوس بشكل يومي يجعلني أخاف أن تغفل عيناي. لا.. لا أخاف فمرضنا الشقي لا تخيفه أحلام ولا كوابيس، فقط أتجنب وجع الرأس.

لم أحكِ كابوسي يومًا لشخص سوى زوجتي في ساعة صفاء، جاءت تلك الساعة بعد انتشاءة حشيش لبناني صافٍ حجزت منه سيجارتين قبل أن أسلمه ليُخلط ويُوزع.

أخبرتها يومها عن الرجل الملثم الذي يحمل أنبوبًا يريد تفجيره في حلمي، وكيف أطارده طوال الحلم حتى أصل لحمام المنزل وأجده قد تبخر لأقف في حمام ذي إضاءة سيئة في صمتٍ لا يقلقه إلا نقاط مياه تتساقط ببطء مثير للأعصاب من صنبور خرب، وفي ركن ذلك الحمام أرى كتلة خضراء، وذلك الشيء الوحيد الذي يتغير مع تكرار الكابوس. فمرة أراه مشبكًا أخضر، ومرة أراه طبقًا بلاستيكيًّا أخضر، ومرة أخرى خرقة قماش خضراء، ويد مكنسة خضراء. هي دائمًا خضراء اللون.. ولا أستطيع أن أنزع عينيّ عنها حتى وأنا أراها في كل مرة تتضخم، وتتحول إلى كتلة من الظلال، وتشع منها عين حمراء تطل على الجحيم، ثم أستيقظ عالمًا أني مُت. يومها فسرت لزوجتي سبب عراكي الدائم معها على ألا تضع أي شيء لونه أخضر في حمام المنزل وبرغم استمرار زيجتنا لأكثر من عشر سنوات؛ فقلما تعاركنا إلا حين تُخرق تلك القاعدة.

وحيث إنها غير موجودة الآن فتوجب عليّ أنا المعلم توفيق مارادونا أشقى من أنجبه هذا الحي أن أقف مشمرًا بنطالي، وأمسح ذلك الماء الأخضر العطن شديد اللزوجة الذي يئز من بين فتحات السيراميك الجديد الذي ركبناه في الحمام.

لو كانت زوجتي هنا كانت لتلومني أني من ركبته بنفسي، ولا بد أنني قد أخفقت بشكل ما أدى لذلك التسريب.

طرقات مزعجة تقرع الباب لشخص يبدو أنه يود بشدة أن يتخلص من حياته على يدي.

ألقي بالممسحة في غضب وأنا أسب الطارق، وأسب السائل القذر، واللمبة التي تشتعل إضاءتها بالكاد في الحمام وتحتاج إلى تغيير، وأتجه لفتح الباب لأجد المحامي الشاب الذي يقطن أسفلنا.

- السلام عليكم يا أسطى مارادونا.

- في إيه يا أستاذ محيي؟! إيه الرزع ده كله!

يبدو أن نبرة صوتي كانت حادة وعالية لأنه بدأ يعدل نظارته في توتر وهو يقول: أنا آسف والله يا أسطى مارادونا ماكنش قصدي اخبط جامد، بس أنا رنيت الجرس كتير والتسريب اللي قلتلك عليه قبل كده بدأ يشقق في السقف.

- لا إله إلا الله.. ما إحنا جبنا السباك وقال مافيش حاجة! وبعدين مايتأجلش الكلام ده للصبح؟

يهز محيي رأسه: بالشكل ده لو استنينا للصبح السقف هيكون وقع. وأنا لسه موضب الشقة علشان الجواز من أقل من شهر. فمايرضكش الخسارة دي كلها.

- طب أنا مطلوب مني إيه دلوقتي؟

- معلش هخش أبص بس بصة تانية في الحمام، ولو في أي حاجة والله أنا هصلحها على حسابي حتى.

راقت لي فكرة أن يتحمل هو إصلاح الأرضية، فقد ضقت ذرعًا من ذلك المسح اليومي.

- ماشي اتفضل يا هندسة.

عدل وضع عويناته مرة أخرى، وسعل متنحنحًا، ودخل وهو ينظر أرضًا.

قلت له متململًا: مافيش حد هنا يا أستاذ محيي خش براحتك.

اتجه للحمام الذي يعرف مكانه منذ أن زاره مع السباك الأسبوع الماضي وأنا أتبعه.

- هو النور بايظ ولا إيه؟

قالها رافعًا صوته قبل أن يستوعب أني خلفه تمامًا.

- آه تقريبًا محتاج أغير الستارتر.

هز رأسه بتفهم ونظر في الأرض ثم أشار للسائل المتناثر الذي كان ينزف من بين فتحات السيراميك.

- أهو بص يا أسطى، حتى أنت أهو طالع من عندك مايه. ده خطر جدًّا الكلام ده.

أسأل بنفاد صبر:

- أيوه وأنا المفروض أعمل أيه؟

- إحنا والله ما هنحتاج نشيل أكتر من بلاطتين، ونعالج المشكلة ونرجعهم مكانهم، وأنا هجيبلك بدالهم نفس اللون ونفس الشكل وكل حاجة.

- لأ لو على بلاطين مش أزمة أنا كنت جايب بزيادة أصلًا.

قال وهو يشير بيده إلى ركن الحمام: طب لو تسمحلي بس أنا.. أفك البلاطة دي، قبل ما نكلم السباك علشان نعرف تتلم بجبس ولا هيحتاج يجيب معاه ماسورة يبدلها، وإن شاء الله ماتحتاجش أكتر من حبة جبس.

ألوي شفتيّ متأزمًا ولكني أهز رأسي في النهاية.

- بس لامؤاخذة أنت كده هتبهدل نفسك يا أستاذ محيي.

يشيح بيديه متبسطًا وهو يتجه لالتقاط الأزميل: يا راجل أنا متبهدل بقالي ست شهور مع العمال في الشقة تحت، أنا بقيت ولا أجدعها صنايعي، بس لو استأذنك في كشاف أو حاجة علشان النور ده مش نافع خالص.

أدخل غرفتي حيث أحضر كشافًا زينون ثقيلًا عالي الجودة من النوع المخصوص الذي أشتريه لصبياني كي يتواصلوا سويًّا به عن طريق الإشارات الضوئية المتقطعة من على الأسطح. أعود لأجد محيي قد بدأ في تكسير السيراميك.

دس يده في جيبه ليخرج سلسلة مفاتيح لينزع أطراف السيراميك بحرص، بينما أضيء له ما تحت السيراميك.

ما إن أزال السيراميك حتى انطلقت رائحة بشعة، شعرت بها وكأنها تهاجم كل خلية في جسدي، ثم نظرت في رعب إلى الأرض، وبطرف عيني كنت أرى رعبًا مماثلًا في عيني محيي.

أشرت بيدي وأنفاسي تتصارع: شيل ده بسرعة.. شيل ده بسرعة...

نظر لي متسع العينين وهو يقول فيما هو أشبه للصراخ، وأقرب للبكاء: أشيل إيه أنت مجنون! أشيل إيه!

حينها لاحظت أن خوفنا ينبع من شيئين مختلفين. فبينما كنت أنظر لدقات قلبي المتسارعة لقطعة بلاستيكية خضراء تتدلى من نهاية سلسلة مفاتيحه، كان ذلك الأحمق ينظر إلى بقايا جثة زوجتي المقطعة في رعب.

لقد أسأت توزيع القطع، أو أحتاج إلى تذويبها في مادة حمضية قبل أن أعيد تركيب السيراميك خاصة أنه وجب عليّ أن أجد مساحة تكفي أستاذ محيي أيضًا.

هل يصح أن أدفن كليهما تحت رقعة واحدة؟ وهو رجل غريب؟ سأحتاج أن أستفتي شيخًا في ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعود لي الرؤية وتلتقي عينانا، يسحب يده الموضوعة على رقبتي وكأنها نار تحرق. فاغر فاه لا تفارق عيناه عيني، يزدرد لعابه، وينظر حوله، وفي عقلي يأتي صوت ليل:

- هو يعرف ما رأيت...

بالطبع هو يعرف ما رأيت، كان بإمكاني أن أرى ذلك في عينيه، وجسدي يعجز الآن عن الحركة محاولًا أن يعود لي الإحساس بأطرافي. فإن كل إحساسي ما زال معلقًا في رؤية الدم القادمة من ذكريات الأسطى مارادونا، ما زال مارادونا ينظر حوله ككلب مسعور ربما باحثًا في أعين من حوله إن كانوا قد رأوا ما رأيت، ولكن بعد لحظات يستعيد اتزانه ويتجاهل من حوله قادمًا إليّ وعيناه تنوي القتل ولا شيء أقل.

يمسك بتلابيبي دافعًا إياي ويصرخ لعابه متناثرًا على وجهي: أنت عملت إيه يابن المره.

ودون أن ينتظر ردًّا يلقي بي أرضًا ويُكيل لي الركلات مستمرًّا في إطلاق السُباب وتساؤلات لا يبحث لها عن رد.

الألم ينتقل في جسدي مع انتقال ركلاته، وأشعر أن روحي تَسحب مع كل ركلة أعجز حتى عن التنفس.

لا أملك ما أدافع به عن نفسي. ربما لو استجديته وتوسلت إليه أني لا أعرف عما يتحدث، ولكن لا.. لا توجد كلمات يمكنها أن تنقذني الآن.

أدس يدي بجيبي لأتلمس بصعوبة المشمة بأطراف أصابعي لأعيد تواصلي مع ليل

يجيء صوت ليل مرة أخرى حاملًا ما قالته لي جدتي:

- يمكنك بالكلمات أن تصنع أي شيء، فالكون خُلق بكلمات.

أخبريني إذًا عن كلمات تُنهي هذا الألم.

لحظتها توقف الأسطى مارادونا عن ضربي، وإن لم يتوقف الألم.

أفتح عيني الدامعتين لأرى أنه قد تركني ليتناول شيئًا من على المنضدة. ومع صوت ما وقبل أن أراه عرفت أن في يده مطواة يفتحها بيد واحدة ويقول قادمًا لينهي ألمي: بقالي زمن مازفرتهاش.

أغلق عينيّ وأنتظر النهاية هامسًا لليل: لو في طريقة تعرفي ماما وبابا...

تقاطعني ليل صارخة: طنطل.

بنفس الصوت الهامس وأنا أشعر بغبار نعال الأسطى يضطرب: ماذا؟

- مُره يحضر.. طنطل.

- طنطل...

وبعد إحدى وعشرين دقة قلب، يضرب البرق.

«آه يا قلبي.. سابني وباعني وياما لاوعني وليه ماوقفش جنبي...».

أعتدل جالسًا وأنظر أمامي لأستوعب أن هناك فلوكة نيلية تمر من أمامي حاملة فتيات ضاحكات يتراقصن على أنغام (حكيم).

أغمض عينيّ لعدة ثوانٍ شاعرًا بكل كدمة وكل جرح في جسدي يستأذن أجهزتي العصبية الإعلان عن وجوده. أشعر بصعوبة في التنفس.

أفتح عينيّ مستسلمًا للوعي والألم. لا أتعرف مكاني على الفور غير أني جالس على ضفاف النهر مستندًا إلى سور كورنيش أسمنتي، وأستوعب أن قبضتي مضمومة على ورقة.

أبسط يدي لأجد قصاصة مكتوبًا عليها عنوان بخطٍّ سيئ، وهناك دماء طازجة على طرف القصاصة، ولسبب ما كنت متيقنًا أنها ليست دمائي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- تمنى كل يوم أن يكون اسمه قد نَسي، وتولى الزمان ألا يجري على لسان بشر حتى قيام الساعة، ولكن طالما أن بقيت كطير صدى أردد الأسماء كلها.

كنت جالسًا في غرفتي بعد حمام من الماء الساخن استمر لأكثر من ساعة حاولت به أن أطهر جسدي وأخفت أصوات ألمي، خفت ألم الجسد، وبقي أثر ما لوث روحي..

- كل واحد بيحضر جن بيحس نفس الإحساس؟

أسأل ليل وأنا أدلك تورمًا في ذراعي.

- تقريبًا.. التحضير في حد ذاته لأيٍّ من الخوافي شيطانًا كان.. جنًّا أم روحًا أو غيرهم هو انتزاع مخلوق من عالمه بكلمات تجره صاغرًا لهذا العالم، حتى وإن قُدمت القرابين فاغتصاب الوعي لا يغفر، وتتلوث روح من حضّر بذلك الغضب كلما كانت روحًا دنيئة قل التأثر، ولكن من شابهك وكان ناصع القلب يثقل عليه الزمن.

شعرت بالألم في صوتها، وازداد بها الضيق في صدري، فأنا بكلماتي اغتصبت إرادة، وأحضرت من شاء أن يُترك بسلام، وهي ساعدتني بذكرها لاسمه بعد أن كان قد طوي في النسيان.

- طب أنا ممكن أتكلم معاه؟ هو أنقذ حياتي، وغالبًا بالعنوان اللي جبناه ده ننقذ حياة طه كمان. فأنا بس عايز أشكره وأوعده إن عمري ما هطلبه تاني أو هحضره تاني.

ردت ليل بغضب في رأسي: لا تعد بما لا تستطيع الإيفاء به.

- قصدك إيه؟ أنا عمري فعلًا ما هحاول أحضره أو هعيد الكلمات دي تاني سواء أستخدم اسمه أو اسم غيره. أنا عمري ما هكون عايز أسبب ألم زي ده لإنسان.. أقصد مخلوق.

أشعر أن الحدة في صوتها قد خفتت وهي تقول: رغبتك وإن كانت صادقة فهي مستحيلة. لن تنجو من القادم دون مساعدته. نحن نحتاج إليه وهو يحتاج إليك أن تظل حيًّا.

توقفت عن فرك ذراعي وجلست معتدلًا وأنا أقول: هو إيه اللي جاي الأيام الجاية؟ إنتي ليه مش بتقوليلي؟

- أنا لا يتكشف لي المستقبل، ذلك غيب عن إدراكي. ولكني أرى الآثار على الرمل فأعرف يقينًا أن القادم عظيم.

- حلو، يعني في حاجة كبيرة جاية وأنا أصلًا مش عارف هي إيه! طب أوعده بإيه يرضيه؟ ويفهمه إني فعلًا نادم على استحضاره؟

- عده بنفس القسم الذي حنثت أنا به. عده ألا يخرج لفظ اسمه أبعد من خاطرك. وإن أردت منه عونًا فلتتفق معه على اسمٍ تناديه فيحضر في عون شريك وليس مجبرًا بنداء سيد.

- ماشي.. أعتقد في اسم في دماغي.. أقدر أتكلم معاه علشان اتفق على الكلام ده؟ واعتذرله برضو؟

- هو حاضر في وعيك وسامع لما نقول. لا يمكنه أن يتحدث بلسان، ولكنه يطلب منك أن تنطق بلسانك الاسم ويكون بينكما عهد ألا تنطق سواه حين تحتاجه.

أهز رأسي صامتًا، ثم أحك رأسي وأنا أقول: بص هو لازم يكون اسم يعبر عن الخوف حاجة كده قوية بس في نفس الوقت ماينفعش يبقى اسم بيتكرر في الكلام، فـ... إيه رأيك في «العو»؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- بص اللي أنت عملته كان غلط. ولا كان ينفع إنك تروح لوحدك، وأصلًا كان المفروض تبقى مرسيني على الحكاية، من قبل ما نروح للواد مصطفى، علشان أنا طبعًا ماكلش معايا موضوع إنك جه في بالك تسأله فجأة كده.

كنا قد ترجلنا لتونا من محطة مترو المعادي، ووليد يعاتبني بتلك الكلمات.

- يا وليد أنت كتر خيرك تعبان معايا في الشغل وأنا رامي عليك كتير الفترة اللي فاتت، ماكنتش عايز أشغل بالك فعلًا، وماكنتش حاسس إننا هنطلع بحاجة فعلًا من مصطفى ده.

يجذب مرفقي لأفسح الطريق لرجل جاء من خلفي على عجل قبل أن يقول.

- ماشي يا عم ما أنا ماحسبتكش، ولا فتحت بؤي.. تقوم تروح بعدها لأسطى مارادونا ده وأنت عارف إنه راجل مُسجل.. ده مش كمان مُسجل.. ده هو اللي بيشغل المُسجلين عنده.

يمسك بيدي ليوقفني للحظة ثم ينظر إليّ مبتسمًا: ده هو اللي بيسجلهم.

ويقهقة ضاحكًا على مزحته.. قبل أن يجذبني مرة أخرى لنتحرك.

- أيوه فكنت عايز تيجي تضرب معايا مثلًا؟

- نضرب مين ياعم!.. أخوك والحمد لله بطل.. ماحدش يعرف يعمل معاه حاجة. بس احمد ربنا إنك رحت مالقتهوش زي ما أنت قلتلي.

لاإراديًّا ترتفع أصابعي لتحك أرنبة أنفي، وأنا أشعر بعدم الراحة لأني احتجت إلى الكذب عليه.

- أنا عرفت على فكرة هو كان فين ساعتها، بس مارضيتش أقولك في التليفون علشان ماخضكش.

ينقطع الحديث للحظة وقد ابتلعنا زحام بوابات الخروج، وما إن وصلنا إلى أرض الشارع أخيرًا حتى سألته: تخضني من إيه؟ إيه اللي حصل؟

يلوي رأسه ويشيح بيده متصعبًا قبل أن يقول: يا عم الليلة اللي أنت عايز تروح فيها حكولي إن كان في عربيات أتاري عند المحل والدنيا لبش، والنهارده لقيت جارهم اللي قالي كده بيكلمني يقولي إن المعلم مارادونا بقى كانوا بيقبضوا عليه ومتهمينه في قتل مراته وواحد جارهم.

تظاهرت بالدهشة: يا نهار أسود! ده إعدام كده!

- لا يا عم، غالبًا مش هتوصل لكده بقولك مراته وجارهم. أكيد قفشهم ولا حاجة.

شعرت بالغضب من فكرة أنه من الممكن ألا ينال ذلك الوغد عقابه وأن تتلوث سمعة ضحاياه.

- بس ده لو عاش يعني لحد ما يروح المحكمة. تقريبًا قل أدبه على الظابط ولا استهبل فكانت إديه تقيلة شوية معاه، الواد بيقولي مش باينله ملامح، وحاجزينه في المستشفى.

أبدل الموضوع سريعًا قائلًا: المهم.. طب خلينا بس في العنوان دلوقتي، هنركب إيه من هنا؟

يخرج وليد من جيبه الورقة التي نقلت عليها العنوان من الورقة الأخرى الملوثة بالدماء، ويتأملها عابثًا في ذقنه وهو يقول: هو قالك فين بقى؟

- هو مين اللي قالي فين يا وليد؟

- يا عم الصبي اللي اداك العنوان ده، الصبي بتاع أسطى ماردونا اللي إداك العنوان ده.

- ماهو قالي العنوان اللي في إيدك ده! وأنت قلت تمام عارفه!

- أيوه أخوك عارف كل حتة، بس أنت عارف المعادي شبه بعضها، حتى أهلها بيتوهوا فيها.

- طب نسأل حد يعني ولا إيه؟

- لا لا لا.. أكيد حتة قريبة هنا، إحنا نلف كده الناحية دي.

وأشار بيده ناحية اليمين: ولو مش هنا هنرجع نخش من الناحية دي.

ودون أن ينظر أشار إلى يسراه إلى الشمال.

- طب خلينا نوقف تاكسي يا وليد.

- يا عم دي فركة كعب!

أتجاهله مشيرًا إلى سيارة أجرة، وأختطف من يد وليد الورقة لأعطيها للسائق الذي ينظر إليها ثم يهز رأسه مشيرًا لنا بالركوب.

أشير بدوري لوليد أن يركب فيهمس في أذني بحنق قبل أن يركب: يا عم أما تديله الورقة كده يفتكر إن إحنا أغراب، ويشتغلنا في الأجرة، والله هيلف بينا المحافظة كلها.

- اركب يا وليد.

بعد أقل من عشر دقائق نصل إلى العنوان، وبينما يترجل وليد من السيارة وأنا أنقد السائق.

- يا عم مش بقولك فركة كعب! كنا نتمشاها! أحسن من تمشية فيصل بتاعة كل يوم.

مبنى قديم أنيق لا يزيد على أربعة أدوار، كان هذا المربع السكني بأكمله يختلف عن الأجزاء التي يقطن بها من أعرفهم في المعادي؛ فهنا الأجواء أكثر أرستقراطية، وهدوءًا.

أمسح بعيني أرقام البنايات قبل أن أجذب وليد من كتفه متجهين إلى البناية المنشودة.

العنوان يشير إلى الدور الأول، وعلى باب واحدة من الشقتين التي تشغل الدور كانت هناك بطاقة نحاسية صغيرة خُط عليها اسم أستاذ «جلال عبيد».

نطرق الباب، وننتظر وأنا أتأمل من حولي المكان.

كان شعورًا غريبًا أن أزور هذا المكان الذي رأيته في الرؤية.

شعرت ببعض الاختلافات، لكن مع بعض التدقيق أفهم السبب.

حين رأيت هذا المكان من عين شهاب كان هناك فارق عشرة سنتيمترات في الطول، وذلك سبب الشعور الغريب الذي أشعر به الآن؛ شهاب إذًا وغد فارع الطول.

أتحسس المشمة في جيبي بينما ينظر وليد من حوله متململًا ثم يقرع على الباب مباشرة مناديًا: حاج جلال..

أضع يدي على فمي وأنا أقول له: هششششش.. يا عم الراجل كبير وبيتحرك بمشاية، تلاقيه جاي على مهله.

يأتي صوت ليل هامسًا: احذر.

أتلفت من حولي سريعًا، واضعًا يدي على فمي متمتمًا بصوت غير مسموع: في إيه؟ أحذر من إيه؟

ثم تلتقي عيني بعيني وليد الذي ينظر لي متشككًا ويقول: أنت عرفت منين إن هو بمشاية؟

يأتي صوت ليل الهامس مرة أخرى: من هذا.

آخذ لحظتين قبل أن أتمكن من الإجابة: الصبي بتاع مارادونا كان قايلي.. تعالى نشوف البواب ولا حاجة يمكن يكون خرج.

ثم تقع عيناي على السلم لأستوعب صعوبة حدوث ذلك بحالته الصحية، وعدم وجود مصعد، ولكني أدعو الله ألا ينتبه وليد لذلك الخطأ.

ننزل درجات السلم، ونقترب من غرفة البواب المواربة، وأطرق عليها طرقات خفيفة فيأتي صوت وليد من خلفي: يا أهل الله ياللي هنا...

لنسمع حركة تأتي من داخل الغرفة، وصوت ناعس يقول: أيوه.. أيوه...

ثم يظهر الحارس وآثار النوم لا تزال جلية على وجهه.

أقول بصوتٍ هادئ: هو أستاذ جلال عبيد اللي في الدور الأول نزل ولا إيه؟

يضيق عينيه وهو يتأملني ثم يسأل: لا أستاذ جلال مابيخرجش.. إنتوا مين؟

يأتي صوت وليد مرة أخرى: إحنا من التأمينات. حج جلال بس ماستلمش معاشه وجايينهوله.

- لا خبط عليه تلاقيه فوق.

أنظر إلى وليد نظرة ممتنة، قبل أن أعود للحارس: لأ ما إحنا جربنا فوق فمافتحش علشان كده جاينلك، هو مالوش قرايب طيب ولا أي حاجة؟ يعني يطمنوا عليه؟

- لا ماعرفش، بس لو عاوز تسيبله حاجة سيبها معايا.

يقول له وليد وهو يجذبني من ذراعي: لا ماينفعش يابا لازم يمضي. نبقى نرجعله في وقت تاني.

يقولها ناهيًا المحادثة، ونتجه سويًّا للخروج قبل أن يسألني: أنت عايز تعرف ليه قرايب ليه؟ تسألهم على طه بردو؟

لن أستطيع إخبار وليد أن السبب الأساسي في اصطحابي له معي هو شكي في أن مكروهًا قد أصاب ذلك الشيخ، أحتاج أن يكون وليد معي إن كنا سنكتشف جثة، وعدم فتحه للباب يزيد من تلك الاحتمالية بشكل كبير.

- لا أنا قلقت بس على الراجل هو راجل كبير بس زي ما قلتلك.

- أيوه واحنا مالنا! إحنا جايين نعرف منه إذا كان يعرف حاجة عن ابن عمك ولا ابن عمتك ده.

- يابني مش هسأله على طه، أنا أصلًا هسأله على الواد اللي اتشاف مع طه آخر مرة.

- أصلًا!

أشيح بيدي متضايقًا وأقف في انتظار أن تأتي سيارة أجرة أو ميكروباص يعيدنا للمترو.

ويأتي وليد من خلفي مربتًا على كتفي: يا عم بالهداوة بس، ده كده نعتبره حارة سد. أنا معاك وشوف فين الخطوة الجاية اللي عايز تاخدها ويلا بينا. كده كده الواد محمود مغطينا إحنا الاتنين في الشغل النهارده.

كان هناك مكان واحد أحتاج للذهاب إليه بالفعل، قد أجد فيه خيطًا جديدًا للبحث عن طه، وسيكون من الأفضل كثيرًا أن أصطحب وليد معي.

- بص هو في مكان صعب عليا إني أروحه لوحدي فعلًا فجميلة بجميلة بقى معلش كمل اليوم معايا.

- ياض ماتقولش الكلام ده أنت عبيط! جمايل إيه! وبعدين أنا اللي قايلك أهو!

- يلا بينا.

- على فين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بصعوبة تخلصت من دعوات أمي لنا أن نتناول الغداء معها وأنا أنتظر حضور أبي، فطالما كان هذا البيت بيت أبي، حيث ولدت. مكانًا مؤلمًا.

هو جزء من تكويني، هو بيت شعر أبي تمام قد صار حقيقة حين قال: نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأولِ

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأول منزلِ

ويا ويلك حين تحن لمن لفظك، في كل ركنٍ ذكرى تمثل لي نهرًا لا أحتاج لليل ما إن ألمسه حتى تسري تلك الذكرى في كل عروقي، وتنتهي دائمًا باليوم الذي أخذاني فيه لزيارة جدتي، ورحلا من

دوني، تاركين إياي كقطعة أثاث أو جهاز لا حاجة لهم به بعد الآن.

ودعوة أمي للغداء تمزق في قلبي المهترئ. تدعوني أن أكون ضيفًا في بيتي.. يقتلني كرمك يا أمي.

آخذ فقط ما احتجت إليه «مفتاح غرفة طه» على السطح، وآخذ صديقي وأرحل ناويًا أن أطلب منه أن يعيد هو المفتاح بعد أن ننتهي من فحص غرفة طه.

- طه اللي كان بيربي الحمام؟ ولا حد من السكان؟

ألتفت لأنظر لما يتحدث عنه وليد لأرى برجي حمام بشعي المنظر في ركن من أركان السطح خلف منشر الغسيل، ومجموعة من الكراكيب.

أهز كتفي قائلًا: ولا اعرف.

ثم أدلف لغرفة طه المظلمة.

أتحسس في الظلام مفتاح الإضاءة، وما إن أشعله حتى أشعر بألم في عيني من الإضاءة السيئة وشعوري وكأن كل محتويات الغرفة متموجة.

أدعك عيني وأنا أتحرك فترتطم قدمي بمنضدة صغيرة يهتز ما عليها، فأمد يدي بتلقائية لمنع ما فوقها من السقوط، وبالكاد ألتقط أول حروف صرخة انطلقت من «ليل» قبل أن يضرب البرق...

أقف خلف عمي بعدة خطوات ملتقطًا أنفاسي بصعوبة، متسلقًا درجات سلم تلك البناية القديمة في تلك الليلة الحارة. لم أكن قد نلت كفايتي من النوم حين أيقظني عمي لأصحبه إلى منزل عمتي، قبل أن يطرق الباب ثانية كان قد فُتح لتظهر ابنة عمتي التي تكبرني بعقد من الزمان ومقلتاها حمراوان كالدم. يتلقفها عمي بين ذراعيه مربتًا على كتفها هامسًا ببعض الكلمات بشفاه ترتجف لا يصلني منها سوى آخرها قائلًا: هي فين يا حبيبتي؟

تحاول أن تقول شيئًا، لا يمكنني سماعه ولكني قرأت على شفتيها ما نوت أن تقوله دون صوت «في أوضتها» وتشير بيدها للتأكيد لتوجهنا ناحية غرفة عمتي.

يتقدمها عمي ويتجهان للغرفة، وأتلكأ مغلقًا باب الشقة ومتأملًا في الأثاث القديم لشقه عمتي.

بيت مصري عادي، سيئ الإضاءة في أكثر الصباحات إشراقًا، وفي تلك الليلة كل أركانه صارت مقبضة أكثر من العادة.

لم أحب التواجد في تلك الشقة أبدًا. لم أحب ورق الحائط البني المزخرف، لم أحب صورة الطفل الباكي الزيتية، ولا الأثاث المذهب الذي يستحيل أن تشعر بالراحة وأنت تجلس عليه.

أقترب واجلًا من غرفة عمتي التي كانت في منتصف الشقة، صممت كغرفة معيشة ولكن منذ مرضها انتقلت إليها كغرفة نوم لقربها من الحمام والمطبخ. كان لها باب ذو إطار خشبي وألواح زجاجية معتمة، درفة واحدة من الباب كانت مفتوحة، لمحت عمي منحنيًا بجواره ووصل إليّ بكاؤه. تراجعت خطوتين للخلف غير واثق مما أشعر به الآن.

خليط من الحزن على عمتي المسنة، وشعور بعدم الراحة لرؤية عمي يبكي ورهبة عامة من الموت.

أشعر بيد ابنة عمي على كتفي، ألتفت إليها لتحتضنني وهي تقول كلمات مفهومة بالكاد: كانت بتحبك أوي، كان نفسها تشوفك في الجامعة. كانت دايمًا بتقول عليك نسخة من باباك الله يرحمه.

لم أجد كلمات، بادلتها فقط العناق في صمت. خرج عمي من الغرفة يربت على كتفي هو الآخر، شعرت بالاستغراب في تعزية كلاهما لي وهما المنهاران وليس أنا. ولم أعرف هل يصير البكاء واجبًا الآن؟ فأنا لم أكن أستطيع استيعاب الموقف بعد.

- بطاقتها معاكي يا آية؟

تهز رأسها، وتذهب في صمت لتجلب البطاقة. ينظر إليّ عمي بعينيه الدامعتين ويقول لي: هاتلي كوباية مايه والنبي من جوه.

أهز رأسي متجهًا إلى المطبخ، وأحاول تجنب اختلاس النظر للغرفة أثناء المرور بجانبها. أقف أمام الثلاجة للحظة شاعرًا بعدم الراحة أن أفتح ثلاجة عمتي بعد موتها. شعور غير مفهوم أنفضه عن رأسي سريعًا مخرجًا زجاجة من المياه وباحثًا عن كوب أعيد غسله للتأكيد.

تصطدم قدمي بمصيدة فئران لا يوجد بها طعم، يبدو أن الفأر كان ذكيًّا ليأكل الطعم دون أن تُغلق عليه.

أعود لعمي بكوب الماء وجدته يخبر بعضًا من أقاربنا هاتفيًّا بفتح المدافن. ينهي مكالمته ثم ينظر لابنة عمتي قائلًا: طيب، هننزل نجيب الدكتور علشان تصريح الدفن. وانتي عدي على سهيلة مرات خالك نجيب هتكون مجهزالك الورق والمفتاح بتاع التربة.

قام من مكانه وتناول كوب الماء ليتجرعه دفعة واحدة ويعيده إليّ مربتًا على كتفي مرة أخرى وهو يقول: بقيت راجل يا طه، معلش هنعتمد عليك في حاجات كتير. عمتك الله يرحمها كانت بتحبك أوي. وكانت بتعتبر نفسها مكان أبوك وأمك الله يرحمهم، والله هي اللي كانت شايلة مصاريف قعدتك معايا كلها ربنا يجعله في ميزان حسناتها. إحنا مش هنتأخر، عمك نجيب كان سهران في الشغل وجاي عليك على طول.

يقولها ثم يوليني ظهره متجهًا إلى باب الخروج وهو يتنهد قائلًا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

كنت ما زلت أحاول استيعاب ما طلبه مني، في أفضل الظروف كنت لا أرتاح لوجودي هنا، ولكن في وجود جسد عمتي وتركي وحيدًا معه فذلك واحد من أسوأ كوابيسي.

أبحث عن كلمات أو أسباب تجعلني أصاحبه أو أصاحب ابنة عمي ولا أترك هنا وحيدًا دون أن أظهر حقيقة رعبي من مطلبه، ولكن الكلمات لا تأتي. مخاوفي الطفولية بالنسبة لهما لن تعني أي شيء فقبل أن أنطق بكلمة كانا قد خرجا وأغلقا الباب، ووددت لو ركضت وراءهما لأترك الباب مفتوحًا.

لكني لم أفعل. تسمرت في مكاني، غير قادر على الحركة، محاولًا أن أهدئ من سرعة أنفاسي مفكرًا إن كان من الممكن أن أبقى واقفًا دون أن أتحرك قيد أنملة حتى عودتهما.

لا أعرف كم مر عليّ وأنا واقف في مكاني لكن في النهاية قررت أن من الأفضل أن أجلس وأنتظر.

أتحرك لأقرب مقعد بثبات وكأن جمهورًا يراقبني، بالطبع كان مقعدًا قديمًا يثير الألم في كل ما لمس من جسدي، ولكن كان نقطة سكون بالنسبة لي.

أحاول أن أشغل ذهني بأي شيء آخر مفكرًا في ذكرياتي مع عمتي، محاولًا اجتراء الدموع، كنت حزينًا عليها حقًّا خاصة أن أبي - أخاها الأصغر- قد رحل مبكرًا أثناء حمل أمي؛ فلم أعرفه قط، وتولت هي على عاتقها أن تتلو عليّ كل تفاصيل حياته حتى أتخيل أني لم أكن لأعرفه بمثل تلك الحميمية لو ظل حيًّا، وبعد أن رحل ابنها الوحيد الذي كنت أعده أخًا ازداد تعلقها بي وإن قل تواصلنا لتغير طباعها، وتأثر نفسيتها، ولم تستوِ الأمور إلا بعد أن رحلت أمي، ولكن عمي فضل أن أبقى معه خاصة في وجود ابنتها، وبالرغم من كل ذلك ما زلت لا أستطيع البكاء وأخاف أن يثير ذلك حفيظة عمي ظانًّا أني لم أكن أحبها.

جل ذكرياتي عن عمتي كان بحثي عن حقن الأنسولين الخاصة بها في الصيدليات. ربما العيديات في العيد، وإفطار في أول أيام رمضان.

وفجأة يظلم كل شيء. شهقة قصيرة تنطلق لاإراديًّا مني مع الإظلام المفاجئ لقد فصل التيار الكهربائي. تتسارع أنفاسي وأنا أفكر: أتراه في المبنى كاملًا؟.. أم أن الدائرة الكهربائية الخاصة بالبيت قد انصهرت؟

لا يهم.. ففي كل الأحوال سأحتاج إلى التحرك من مكاني، وهذا لا أراه يحدث. أدور برأسي، ناحية باب الشقة، محاولًا اختراق الظلام باحثًا عن أي نقطة نور، ولكن لا تزال عيني لم تعتد الظلام، وكل ما أراه بحر من الأشكال والألوان النابضة. أقل من دقيقة تمر كي تبدأ عيناي في اعتياد الظلام وتكوين أشكال ضبابية لماهية الأشياء.

تعيش عمتي في منطقة هادئة تعاني من شح الأصوات، ولكن هناك بعض الأصوات التي تؤنسك ولا تدري بوجودها، ربما هدير من الثلاجة، أزيز من النجف القديم، ولكنها دائمًا هناك تعطيك شعورًا بالونس، اختفت في لحظات. صمت ثقيل شعرت به يحط على رأسي، ثم صرت أميز أصواتًا لم أسع لسماعها من قبل. شهيقي وزفيري، الذي أصبحت أعي به وآخذ كل شهيق وأخرج كل زفير بحساب محاولًا ألا أجرح قدسية الصمت.. ثم تلك النبضات، أسمع نبضات قلبي تعلو في أذني، وطنينًا خافتًا يأتي من اللامكان إلى أن أتى صوت ذلك الأزيز.

أزيز خافت جدًّا، ولكنه في هيبة الصمت صار رعدًا. من أين أتى؟

وقبل أن أحاول حتى إقناع نفسي بأن ما سمعته ضرب خيال يأتي الأزيز ثانية. تراه المقعد الذي أجلس عليه؟ أحاول الاستدارة بجسدي منتظرًا أن يأتي ذلك الصوت ليريح قلبي. أصدر المقعد أزيزًا ولكنه كان أعلى وأقرب ولا يشبه ما سمعت.

أكتم أنفاسي لثوانٍ لاعنًا كل تحفظاتي على إخبار عمي أني خائف ولا أريد البقاء وحدي. أوازن خياراتي ما بين الاستسلام للخوف، وأن أركض خارجًا من الشقة لأفتح بابها ضاربًا عرض الحائط بكل ما ألقاه عمي عليّ من مسؤولية، وعن نعته لي بالرجولة.

يمكنني أن أحاول فتح نافذة ربما يأتي منها بعض الضوء، أو البحث عن شموع. رأيت بعض الشموع في المطبخ وأنا أحضر الماء لعمي. «دعنا نؤجل ذلك الجنون للحظات» أحاول أن أكون أكثر عقلانية. للوصول لواحد من الهدفين سواء النافذة أو الشموع سأحتاج إلى أن أمر من أمام غرفة عمتي، وهو آخر شيء أريد فعله الآن، ولكن بقائي في الظلام سيزيد من تلك الخيالات المجنونة وإذا عاد عمي أو ابنة عمي سيكون واضحًا لهم لِمَ لم أحاول إدخال أي ضوء.

دافعًا جسدي للحركة قبل أن أغرق في أفكارٍ وأوهام أخرى أقف منتصبًا وأتحرك مفاضلًا ما بين أن أغمض عيني تمامًا وأتحرك متحسسًا ما حَولي، أم أحاول تمييز طريقي في الظلام، مخاطرًا أن يجعل خيالي من الموجودات وحوشًا.

تحركت وأنا لم أقرر فتارة أغمض عينيّ كلما تشكل لي في الظلام كيان، وأفتح عيني مرة أخرى حين أصطدم بقطعة أثاث أكاد أقسم إنها لم تكن موجودة هنا منذ لحظات.

خطوة تتبعها الأخرى وأحاول أن أتجاهل ذلك الأزيز المتكرر.

أصلِ للنافذة وكأنها طوق نجاة، أجذب المقبض المعدني محاولًا فتحها دون نجاح. أديره يمينًا ويسارًا مفتشًا في ذاكرتي عن أي جهة يفترض بي إدارته. لا يهم، كلتا الجهتين ترفضان الاستجابة. فقط أصنع الكثير من الضوضاء التي توترني أكثر.

أتوقف عن المحاولة ولكني لا أدير ظهري عن النافذة أو أترك المقبض.

ألصق وجهي بلوح الزجاج البارد.

خلفي مباشرة إن التفت ستكون غرفة عمتي، هل أكمل حتى المطبخ وأبحث عن الشمع؟ أم أعود لمقعد السكون، وأجلس في انتظار أن يأتي أحدهم لأنجو من هذا الكابوس؟

مرة أخرى الحل العقلاني هو إحضار الشمع، لن أحتمل أن أشكك عمي في استحقاقي لثقته ورؤيته لي كرجل يتحمل المسؤولية لمجرد خيالات أعرف يقينًا أنها لا تعني أي شيء.

تمنيت أن يدخل ذلك اليقين قلبي، ولكن سيكون ذلك صعبًا في هذا الظلام الدامس.

المطبخ إذًا.. في خطوات أقصر من الخطوات السابقة أصل إلى المطبخ وأمد يدي فوق الثلاجة، باحثًا بأصابعي عن شمعة أو اثنتين، ويدي الأخرى تعانق الثلاجة باحثًا بغريزتي عن الأمان. أجد ضالتي بد ثوانٍ من التخبط، وبعد أن أهلت على رأسي طنًّا من التراب.

والآن علي أن أبحث عن كبريت.

أقترب من الموقد باحثًا عن عود ثقاب، كان بجانب الموقد ولاعة، تلك الولاعة الكهربائية اللعينة التي تعمل بالبطاريات، وهي لن تصلح لإشعال الشمعة بالطبع، ولكن أحيانًا كانت ابنة عمي تترك بعض أعواد الثقاب في حالة انتهاء البطارية الخاصة بالولاعة.

وجدتها...

علبة أعواد ثقاب ورقية عتيقة أتحسسها لأجد أنها تحتوي على ثلاثة أو ربما أربعة أعواد.

أحاول تثبيت الشمعة على طرف الموقد، وأحاول إشعال العود الأول ليتفتت رأسه تمامًا دون أن يشتعل.

أطلق سبة من تحت أنفاسي وأقطع العود الثاني محاولًا إشعاله. يشتعل ولكنه ينطفئ في سرعة قبل أن أقترب حتى من رأس الشمعة.

أقطع الثالث وأكتم أنفاسي تمامًا وأحيط بيدي على العود والشمعة وفي سرعة وحسم أشعل عود الثقاب، وأقرب اللهب من فتيل الشمعة داعيًا أن تلتقط اللهب قبل أن ينطفئ العود، تشتعل الشمعة، وكدت أطلق زفير ارتياح يطفئ لهب الشمعة الوليد ولكني أمسكت أنفاسي في اللحظة الأخيرة. الآن ماذا؟ يجب عليّ العودة لمقعدي وانتظار الفرج.

ألقي نظرة على عود الثقاب في ضوء الشمعة، هناك عود متبقٍّ. أضع العلبة الورقية في جيبي وأمسك بالشمعة وأستدير للخروج، وحينها ألمحه بطرف عيني.

هناك شيء ما يتحرك في ذلك الركن. لا أجسر على الاستدارة وتحويل مركز رؤيتي.

هناك شيء يتحرك في الركن، ولا.. لا يُهيَّأ لي ذلك بسبب تمايل اللهب. أتحرك خطوات للوراء حتى يلتصق ظهري بالثلاجة، وأبتلع ريقي مقررًا الخروج من باب المطبخ.

يتحرك مرة أخرى في سرعة تلك المرة. أتحرك في سرعة أنا الآخر لترتطم قدمي بعدة أوانٍ تسقط مصدرة رنينًا معدنيًّا عاليًا ثم صوت طرقعة عالية من ركن المطبخ. الخوف والفضول. كلاهما يدفعاني ناحية الصوت، لأرى منظرًا بشعًا لفأر أغلقت عليه المصيدة الخالية من الطعم بعد أن أخفته.

أضع الشمعة على طاولة المطبخ محاولًا تثبيت يديّ المرتعشتين وأخرج من الثلاجة زجاجة ماء لأتجرع منها مباشرة وأبلل وجهي ببعض الماء.

بدأت ارتعاشة يدي ولم يهدأ تسابق نبضات قلبي. اللعنة على ذلك اليوم.. كم مر من الوقت؟

أشعر أن كل أطرافي مخدرة وأنا أخرج من المطبخ لأدرك ساعتها أن الظلام كان أفضل ألف مرة من الظلال التي يلقيها لهب الشمعة في كل مكان. أبطئ من خطواتي مرة أخرى محافظًا على لهب الشمعة ومراقبًا كل الخيالات التي تتراقص من حولي، ثم أقف قبل مروري بباب غرفة عمتي. لا لسبب سوى لصوت أزيز واضح لا يمكنني تجاهله يأتي من داخل الغرفة.

أيًّا كان ما أخافه فإنه هناك. على بعد خطوة واحدة، يحتاج مني نظرة ليصير واقعًا. لا يتوقف الأزيز المتقطع.. إنه هنا.. يتحداني.. يتلاعب بي.. وينتظر قرارًا.

صوت الأزيز لا يتوقف، يعلو.. واللهب يتراقص.. يهددني هو الآخر أن يرحل وأن يتركني وحدي في الظلام مع أيٍّ كان ما ينتظرني.

أنظر يميني لأجد أن النافذة التي حاولت فتحها مفتوحة على مصراعيها، وتأتي من فتحات الشيش الخشبي نسمات من الهواء ستطفئ لهيب الشمعة بعد لحظات.

لدي لحظات لأقرر إن كنت أريد أن أرى نهايتي أم أستسلم للظلام دون أن أعرف. خطوة واحدة.. خطوة أخذتها قبل أن أقرر حتى.

استدرت في سرعة وأصبحت في لحظة داخل غرفة عمتي وفي يدي الشمعة التي تلفظ آخر أنفاسها.

وقبل أن تنطفئ توهجت في قوة لتضيء الغرفة، وأجد أمامي عمتي مفتوحة العينين، تصرخ قائلة: هقتلك زي ما قتلتوه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يا حبيبي مموت نفسه من العياط.

- ماهي بردو كانت غالية عليه.

أفتح عينيّ لأجد نفسي بين عمي وابنة عمي وبعض نساء العائلة اللاتي لم أتعرفهن، وابنة عمي توجه لي الحديث وتقول: كده يا طه تقعد تعيط لحد ما يغمى عليك يا حبيبي؟ ده حتى حرام، ده أنت تتعب عمتك.

تقبل رأسي وعمي يقول: لأ انشف كده يا حبيبي أنا محتاجك معايا إنت اللي هتشيل اليوم. أمال لما أنا أموت هتعمل إيه؟

جاء صوت عمي نجيب من ورائه: بعد الشر عليك مش وقت الكلام ده والنبي. معلش سيب الواد يرتاح خلينا ناخده نوديه البيت عندي، ويجيلنا على العزا.

التفت إليه عمي وهو يقول: طيب يصلي معانا بس الجنازة.

- لا معلش، خلينا نوديه البيت، حرام الواد.

ألقي نظرة أخيرة على غرفة عمتي، ثم أتبع عمي نجيب دون أن أنبس بكلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أغرق في الأبيض وتصرخ عيناي بحثًا عن الألوان، وفي ركن من الضوء الباهر نقطة من الظلام تمتد إليّ كطوق نجاة.

أهرع بعقلي ناحيتها ومع الظلام وبه أسترد كياني وأعرف من أنا.

أول ما أشعر به هو أسناني تعض على خشبة مبتلة، ثم يأتي الصوت: الله أكبر الله أكبر.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. أنت كويس.. أنت كويس ماتقلقش.

كدت لا أميز صوت وليد من رجفة لم أعرفها في صوته من قبل.

أفتح عيني وأحاول الجلوس فيسرع وليد مسندًا إياي وكأنه يحتضنني.

أبصق ما في فمي من قطع خشبية في وهن وأنا أتمتم: أنا آسف والله يا وليد أنا آسف...

- يا جدع آسف إيه بس.. ألف سلامة عليك.

أستوعب أنه قد مد يده بكوب من الماء ناحيتي، أتناوله بيد مرتجفة وألمح آثار دماء على يده، يخفيها سريعًا.

آخذ شربة سريعة من الماء قبل أن أسأله: إيه اللي حصل لإيدك؟

- يا عم إيدي سليمة وزي الفل تعرف تقوم؟

أهز رأسي ممسكًا بذراعه، وأستند إليه واقفًا، وما إن أقف حتى أمسك بيده متأملًا فيها للحظة قبل أن يجذبها.

كانت عليها آثار أسنان.. أسناني لأكون محددًا. يبدو أنه حين داهمتني النوبة (الرؤية) حاول وليد تطبيق ما أوصيته به إذا داهمتني النوبة في العمل، أن يضع شيئًا في فمي كي لا أقطع لساني بفكي.

ويبدو أنه احتاج لبعض الوقت ليجد بديلًا عن يده دون أن يحاول نزعها من فمي خوفًا عليَّ.

حينها توقفت عن تمتمة اعتذاراتي، ولم أستطع حتى تكوين كلمات شكر، كأي كلمات تصير ضرب ابتذال لما أشعر به الآن من عرفان.

أجلسني وليد على كرسي خشبي وهو يسأل: ها، تحب أروحك؟ ولا محتاج تروح لدكتور؟

أهز رأسي رافضًا وأنا أقول: لا يا عم أنا كويس خلاص. خلينا نشوف اللي جينا نشوفه.

- يا عم إحنا جينا نشوف الهم. خضتني عليك يابو خالد.

أضحك مجاملًا وأنا أقول له: طب خش اغسل إيدك طيب بعدين نشوف هنعمل إيه.

ينظر وليد ليده، ويومئ برأسه وهو يفتش عن طريق الحمام قائلًا: شكلها فيها واحد وعشرين حقنة دي ياض.

تصدر مني ضحكة قصيرة ثم أتأمل الغرفة مرة أخرى وأهمس: إيه الزغللة اللي أنا شايفها دي كلها؟

لا تنتظر ليل لأن أنهي سؤالي لتجيب: أنهار دنسة...

أهز رأسي و أرى تحت المائدة التي اصطدمت بها عند دخولي الشيء الذي كنت أنقذه من الوقوع. لقد كان محقنًا طبيًّا بلاستيكيًّا قديمًا.

حمدًا لله أنه لم يكن موصولًا بإبرة، وحده الله يعلم فيما استُخدِم هذا المحقن.

كان يتموج بالطبع.

- أنا لو لمست أي حاجة من دول...

مرة أخرى ترد ليل قبل أن أكمل: سيجذبك النهر وستدخل في رؤية أخرى نعم...

أتنهد قائلًا: هايلٍ...

يعود وليد قائلًا: يا عم قريبك ده منتن، الفوطة اللي حاططها المخرتئة دي والمصحف الخيشة اللي بنمسح بيها المطبخ عندي ريحتها أنضف منها. يلا يرجعلكم بالسلامة إن شاء الله.

- معلش يا ويل علشان أنا مش عارف أتوازن، أستأذنك أنت اللي تدور كده في الغرفة.

- يابني ما أنا قلتلك أروحك؟

- خلاص جينا بقى هنا يا وليد. معلش هتعبك.

- لا يا حبيبي ولا يهمك تعبك راحة يا أبو خالد.

بالرغم من صغر حجم الغرفة إلا أن الأمر احتاج لما يقارب من نصف ساعة كي نجد أي شيء ذي قيمة.

فأسفل الفراش وجد وليد مظروفًا بنيًّا ملتصقًا بالألواح الخشبية الخاصة بالفراش. سعدت حين رأيت أنها ثابتة لا تموجات عليها، فتناولت المظروف وبداخله وجدت مجموعة أوراق مألوفة.

كانت نفس الأوراق التي أحضرتها أمي معها، والتي رأيتها عند العجوز في بيت العجوز في الرؤية. يبدو أن هذا سيكون أفضل ما أستطيع التوصل إليه الآن في تلك الزيارة على الأقل دون أن أسقط في رؤية أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يومان لا يمران بي بل أصارع لأمر بهما.. يصرخ إدمان في جسدي أن أتناول علبة من المشروب الرياضي، متأكدًا أنه سيرفع عني بعضًا من الألم والإجهاد.

كان ثمن دخول الملح جسدي أن أنقطع عن ليل وطنطل، وفي الوقت الحالي فذلك ثمن باهظ.

ليس قبل أن أجد طه وأن أرى الشر القادم، الذي تحذرني منه ليل.

في نهاية دوامي في الاستوديو حاولت ندى أن تستنطقني عن سبب انزوائي الفترة الماضية، وتدهور صحتي الجلي للعيان، ولكني كنت أتملص منها ومن تلميحات المصورين بأن إنتاجيتي في سرعة العمل على الصور قد انخفضت بشكل كبير، ولكن وليد كان حاضرًا دائمًا للرد، مشتكيًا بصوتٍ عالٍ من الأجهزة الأثرية التي نعمل عليها ليُخرس الجميع.

وحيدًا في عربة المترو وحيدًا بأفكاري.. وحيدًا بشخصي بالتأكيد.. العربة كانت مكتظة عن آخرها.

تنازعني أفكاري أن أعود لمحطة الجيزة، وأذهب لغرفة طه وحيدًا محاولًا أن أرى المزيد، أو أن أعود للمنزل وألقي نفسي في الفراش مخمدًا غريزتي في أن أقتل نفسي إنهاكًا لأقرر في النهاية طريقًا ثالثًا.

أكمل بالمترو حتى التحرير ثم أنزل مبدلًا العربة في اتجاهي للمعادي.

محاولة أخرى مع العجوز جلال لن تضر. لو قتله شهاب بالفعل فلا بد أن رائحته قد فاحت الآن واقتحموا الشقة.

ولو كان لا يزال حيًّا، فربما استطعت أن أنقذ حياته.

حين أصل للعمارة التي يقطن بها أتجول قليلًا حولها آملًا أن تكون هناك أي دلائل على واحد من الاحتماليين اللذين أفكر بهما.

وحينها أرى الضوء الذي اشتعل في شرفة الدور الأول حيث يفترض أن العجوز يقطن وحيدًا.

تأخذني خطواتي سريعًا دون تفكير، متسلقًا الدرجات اثنتين فاثنتين، وأطرق الباب والجرس معًا.

أسمع خطوات تقترب من الباب، وللحظة أستوعب أني لا أملك أدنى فكرة عما سأقوله حين يُفتح الباب.

من تحت عقب الباب يتسرب الضوء، وتقطعه حركة ظلال لمن أوشك أن يفتح لي.

أريد أن أهمس لليل لتشيرني عما يجب عليّ قوله، ولكن لا يسعفني الوقت قبل أن يفتح الباب وأرى وجه الكهل الذي شاهدته في الرؤية.

شبح ابتسامة على وجهه وهو يقول بصوتٍ رتيب: اتأخرت ليه يابني؟ أنا مستنيك بقالي مدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جالسٌ على مقعد كلاسيكي ولا بد أنه جزء من طاقم لويس ما.. هو آخر ما نجا منه. بعد أن دعاني أ/ جلال للدخول، وكأننا أقدم الأصدقاء.

أصر أن يدعوني لكوب من الشاي قبل أن يجلس. رغم رفضي الشديد فأنا أتذكر الألم المصاحب لكل حركة مفصل في جسده.

أقف سريعًا متناولًا صينية من يده، لأضعها بحرص، وألتفت لأساعده في الجلوس ولكنه يشيح بيده أنه لا يحتاج إلى مساعدة.

أستغل الفرصة لأغير مقعدي لمقعد آخر يبدو أنه سيكون أقل إيلامًا لظهري، ولكن بمجرد أن أجلس على المقعد المجاور له حتى أعرف أنني قامرت وخسرت، لقد كان أسوأ بمراحل.

أتقبل هذا العذاب المؤقت، وأنا أبدأ الحديث متسائلًا: هو حضرتك عارفني؟

ينظر لي مستغربًا: هو ماقلكش ولا إيه؟

عمن يتحدث؟ أيظن أنني تابع لمارادونا أو شهاب؟

أهز رأسي أن «لا»، فيقول بلهجة شبه حزينة: لأ خلي بالك بقى. ده كده ناويلك على شر. الجن المفروض يقولك طالما أنت مالكه على كل حاجة. زي إن أنت أما تشوف رؤية اللي في الرؤية بيشوفك أنت كمان.

أستوعب أنه يتحدث عن «ليل»، وأتذكر ما حدث مع أسطى مارادونا، ولكني ظننت وقتها أن ذلك كان نتيجة تواجدنا في نفس المكان أثناء الرؤية.

أهز رأسي وأتصنع الانشغال بكوب الشاي.

آخذ رشفة ويصدمني الطعم، يبدو أن العجوز قد خلط بين السكر والملح.

- مالك يابني الشاي فيه حاجة؟

أخاف أن يصر على إعداد كوب آخر في رحلة ستأخذ قرونًا من الزمان فأهز رأسي قائلًا: لأ بس الشاي كان سخن شوية، هيبرد دلوقت.

يهز رأسه ويقول: الـ.. اسمه إيه بقى اللي أنت محضره؟

أرتشف رشفة أخرى من الشاي المالح لأخلق لنفسي لحظات للتفكير قبل أن أقول: لطيش.. اسمه لطيش يا أستاذ جلال.

- لطيش.. آه.. وعرفك اسمي كمان.. وأنا ماعرفتش اسمك للأسف لسه، وماعرفتش أنت كنت محضر لطيش ده مخصوص علشان تشوفني ليه.

أترك كوب الشاي موجهًا انتباهي له: اعذرني يا أستاذ جلال...

ثم انقطع حبل أفكاري للحظة قبل أن أعيد تهيئة نفسي وأبدأ مرة أخرى قائلًا: أنا اسمي خالد.. خالد نجيب.. وبعتذرلك على اقتحامي لخصوصيتك، بموضوع الرؤية ده.. ماكنتش أنت المقصود بأي شكل من الأشكال، بس أنا قبل ما أحكيلك في حاجة مش فاهمها. هو حضرتك إزاي مش مستغرب من موضوع الجن وبتتكلم كإنك عارفه؟ ومش مضايق إن في حد قدامك حضر جن أو حاجة؟

وضع جلال أصبعين على فمه وعاد بظهره مسترخيًا أكثر في جلسته دون أن يرفع عينيه من عليّ، وبدا وكأن حدقتيه قد اتسعتا عدة مليمترات قبل أن يقول: أنت فعلًا ماعندكش فكرة أنا مين.

بتحرج أقول: للأسف لأ.. أنا بعتذرلك إن كان ده جهل مني...

أطلق صوتًا هو نصف زفير، ونصف ضحكة أتبعها بالسعال قبل أن يتحدث مرة أخرى قائلًا: طب يا خالد.. أنت ممكن تبطل تشرب الشاي بالملح، وللأسف هتحتاج تحكيلي كل حاجة قبل ما افهمك أنا مين.

كنت أمشي على خطٍّ رفيع وأنا أروي قصة بحثي عن طه. فأنا لا أريد أن أخدع العجوز، ولكن هناك أشياء لا يمكنني أن أشاركها معه، أهمها: ليل وطنطل والساكن الثالث الذي لم ألتقه بعد. وفي منتصف الحكاية شعرت أنه من الأفضل أن أخبره عن جدتي، دون تفاصيل شخصية، مراهنًا أنه لو كان على دراية بأمور الجن وتحضير الخوافي فهو بالتأكيد يعلم عن مرض الوارثين، وإخفائي أمرًا مثل هذا سيزيد من شكه، وكما أخبرت وليد من قبل، فإني للمرة الثانية ادعيت أن أحد العاملين مع الأسطى مارادونا هو من أعطاني العنوان.

أنهيت حديثي وحكايتي، نظرت إليه في وجل وكأني في انتظار حكم.

- القدر ده عجيب يا خالد.. رغم إنه كان السبب في ضياع مجهود عمري، إلا إنه بردو جابك هنا علشان تساعدني وأساعدك.

كدت أن أتنفس الصعداء بعد كلماته تلك وإن كانت نيته لا تزال غير واضحة، ومجرد كونه على دراية بعوالم الخوافي، بل وأشك أنه واحد من الوارثين أيضًا، إلا أنني أتعاطف معه لمجرد ذكرى الألم الذي شعرت به يسري في جسده مع كل نفس أثناء رؤيتي.

- وأنا أقدر أساعد حضرتك إزاي؟

- والله أنا منبهر بتربيتك وأدبك يا خالد.. من أول ما شربت الشاي اللي بالملح، لحد ما أنت دلوقت بتسألني تقدر تساعدني إزاي قبل ما تسأل أنا ممكن أساعدك إزاي.

أشعر بقليل من الخجل من هذا الإطراء، وأتمتم بكلمات شكر يقاطعني فيها قائلًا: لا حقيقي.. أديك شفت الشباب اللي بقابلهم، وبيخشوا بيتي. المفروض أتوقع إيه من تاجر مخدرات والصبي بتاعه. مايصحش حتى أقارن بين أخلاقكم إنتوا الاتنين. أنا الأدوية بتاعتي جدول زي ما بيقولوا، ومحتاج علشان أصرفها إني أروح أكشف بنفسي عند الطبيب، فاضطريت إني ألجأ لطريقة غير مشروعة، النتيجة أنت شفتها.. أو شفت جزء منها على الأقل.

- أنا توقعت كده برضو يا أستاذ جلال.

- أنا متأكد من ده، الذكاء باين عليك، حتى وأنت بتحكيلي دلوقتي، طريقتك في تجميع الخيوط، فعلًا شاب مبهر.

يزيدني إطراؤه طربًا وأشعر بدفقة من الثقة في الذات وأنا أقول: وأنا أؤكد لك يا أستاذ جلال، أنا هدور على أيًّا كان اللي شهاب سرقه أو على الأقل أعوضك عنه.

- لا لا يا خالد، اللي شهاب خده مايتعوضش. وهو نفسه قد يكون غير مدرك لقيمته. بس... ممكن أكون مخطئ بعد رؤيتك وبعد اللي أنت حكتهولي.

- طب فهمني هو سرق إيه بالظبط؟

- سمعت اسم «إينوخ» قبل كده؟

أفترض أنه يتحدث عن واحد من الجن فأهز رأسي نافيًا وأنا أقول: لا.

- إينوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم. الابن السادس لآدم عليه السلام، والجد التاني لنوح عليه السلام، يمكن تعرفه أفضل بالاسم اللي اتذكر بيه في القرآن إدريس عليه السلام.

أتذكر سماع اسم سيدنا «إدريس» ربما في أحد دروس مادة الدين، أو ربما في خطبة أو درس ديني حضرته، ولكني أجد صعوبة في تذكر حكايته.

- سيدنا إدريس هو تالت نبي بعد آدم وشيث عليهم السلام.

أتمتم خلفه: عليهم السلام.

- هو أول من خط بالقلم، وأول من استخدم القماش بدل الجلد ولبسه، واترفع في رحلة للسما زي الإسراء والمعراج. مانزلش عليه كتاب واحد، نزل عليه ٣٠ كتاب!.. ورغم إنك أهو ماتعرفهوش ولكنه في نصوص كتير من اللي بتوفق التاريخ بالدين بتقول إنه نزل مصر، وهو اللي علمهم الهندسة والحساب. الإيمان بسيدنا إدريس ونبوته في صميم الإسلام، والمسيحية كمان. فهو اتذكر في الإنجيل، وفي القرآن.

نظرة محاولة فهم تبدو جلية في عيني، فيجيب عما يدور في ذهني دون سؤال.

- هفهمك دلوقت أنا بحكيلك الكلام ده ليه.

أتحرج قليلًا، فأنا لا أريد أن أبدو متململًا من حديثه، وقد جئت ساعيًا له.

- واحدة من التلاتين صحيفة دول كان فيها وصف لرحلة سيدنا إدريس من الأرض للسما، والسما هنا مش هي السما اللي فوقنا.. السما هنا معناها العالم التاني. اللي يمكن لو ربنا رضي عنا نكون فيه بعد ما نموت.

- طب ما في أحاديث بتوصف رحلة الإسراء والمعراج.

- لا الموضوع هنا مختلف يا خالد، الصحيفة دي فيها الطريقة اللي تفتح بيها الأبواب.. أبواب السما، وأبواب تانية مش المفروض تتفتح.

كان استيعاب أن ما يحكيه أكثر من مجرد أسطورة صعبًا عليّ، حتى بعد كل ما لاقيته في الفترة الماضية، ولكني سألت بالرغم من ذلك: وحضرتك هي كانت الصحيفة دي عندك بتعمل إيه؟ وإزاي وصلتك؟

- ما أنا قلتلك.. أنا ضيعت عمري كله علشان أوصل للجزء اللي كان عندي.

- طب وإيه اللي مخليك فاكر إنهم ممكن يكونوا فاهمين قيمة حاجة زي كده؟ أنا ماعتقدش إن حد ممكن يبقى عارف الكلام ده غيرك أنت ومجموعة أكيد قليلة من المهتمين بالحاجات دي.

- أنا افترضت زيك كده في الأول، لحد ما حكيتلي اللي أنت حكيتهولي.

- إيه في اللي أنا حكيتهولك يخليك تفترض عكس ده؟

- أنت علشان تشوف الرؤية اللي أنت بتشوفها لازم يكون في أثر من عالم تاني.. في ريحة تحضير وأعمال وجن، من غير الريحة دي أنت ماتقدرش تشوف حاجة.

أومئ برأسي موافقًا قبل أن يكمل: إذن هي مش صدفة، إن شهاب وطه اللي أنت بتدور عليه يكون صابهم مس سمحلك بالرؤية دي، غير إن حد فيهم كان بيحاول يحضر جن يقراله الصحف، ويفتحله باب.

- هو ماينفعش غير الجن هما اللي يقروا الصحف دي؟

- لأ ينفع، بس اللغة اللي اتكتبت بيها مش مجرد لغة قديمة، الصحف مكتوبة بتشكيلة من ٧٢ لغة مافضلش منهم ولا واحدة، فانت محتاج تحضر جن قديم وقوي علشان يعرف يقرا الكلام ده، ومحتاج واحد فيه دم الوارثين علشان يفتح الباب بكلماته.

- لو افترضنا إن كل ده حقــ.. حصل.. افترضنا إن كل ده حصل.. وبعدين؟ هيستفادوا إيه؟

- هيستفادوا إيه إنهم يفتحوا باب للسما؟

يسأل جلال ثم يهز كتفيه متابعًا: ولاد الكلب عايزين يخشوا الجنة من غير حساب.

- وده ينفع؟

- لأ طبعًا، أول ما يتفتح باب هيتحرقوا هما واللي معاهم، مش بينطوا سور الاستاد هما.

- طب ماهي محلولة.. ما يتحرقوا!

- أيوه يا خالد ولما يتحرقوا، إيه اللي يضمنلك مانتحرقش كلنا معاهم والقيامة تقوم؟ أصل بصراحة مش ده اللي قالقني في الأغلب كل ده هيصفصف على محاولات عبيطة تفوق قدراتهم يا هيزهقوا يا هيأذوا نفسهم لكن مش هيسببوا أذى لحد تاني علشان مابقاش بخوفك على الفاضي، أنا اللي يهمني إن غالبًا آخر نسخة من الصحف دي هتختفي وهتضيع معاهم، وأنت أكيد همك إنك تلاقي قريبك، لو كان مجبور على الموضوع ده.

لم تطل جلستنا بعدها، كان الوقت بالنسبة له قد تأخر، وأنا احتجت إلى الاختلاء بعقلي لهضم كل ما ألقاه عليّ.

أعود للمترو وقد خفت كثافة راكبيه، فأسعدني الحظ بأن أجد مكانًا للجلوس.

تهتز بي العربة، وتشعرني وكأنني على مركب في البحر فيزداد الدوار الذي يملأ عقلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

احتجت إلى يومين بعد شربي للشاي المالح ليعود تواصلي مع طنطل بشكل كامل، لم أفقد تواصلي طوال اليومين مع ليل، ولكنها حذرتني أنني لو احتجت إلى طنطل لن يكون متواجدًا؛ فتأثير الملح داخل جسدي كان كبيرًا؛ خاصة أن ليل أكدت لي أن ما وضع في الشاي لم يكن ملح طعام عاديًّا، بل ملح مخصص لطرد الجن.

لا أستطيع لوم الرجل أو أكن ناحيته أي ضغينة فقد فعل ذلك ظنًّا منه أني ضمرت له شرًّا.

كان اليوم إجازة، وصحوت على ليل تخبرني بعودة طنطل.

كانت نيتي زيارة أمي والعودة إلى غرفة طه وحدي، بالتأكيد سأشعر بأمان أكثر في وجود طنطل.

على مر السنين لم تتكرر رؤيتي لأمي على فترات قريبة، منذ أن رحلت أو رُحِّلت إلى بيت جدتي.

استقبلتني استقبالًا حافلًا شاكرة إياي ألف مرة على اهتمامي بـ(طه)، ومع كل شكر ازداد شعوري بالغربة.. أنت لا تحتاج إلى كل كلمات الثناء والعرفان تلك حين تتحدث مع بني دمك.

أخبرتني دون أن أسأل أن أبي لم يعد بعد من الصلاة أيضًا، وإن كنت أشم بوضوح رائحة التبغ التي تتسرب من غرفته في الدقائق البسيطة التي وقفت فيها مع أمي في انتظار المفاتيح، لكني لم أهتم.

تناولت المفاتيح وانطلقت إلى السطح.

يجذب انتباهي برجا الحمام بشكلهما المميز كعمودي طين؛ فعادة ترى مثل تلك الأبراج في الأرياف، وحين يربي أحدهم في المدينة حمامًا فإنه يصنع له عدة أقفاص وتكون «غية» الحمام عوضًا عن تلك الأبراج.

لا أطيل النظر وأفتح غرفة طه، كنت حريصًا على ارتداء قفاز شتوي يمنع جسدي من لمس أي شيء دون قصد.

مجرد أن أفتح النور أرى كل التموجات من حولي. الغرفة كما تركتها أنا ووليد بالضبط.

كان رأي ليل في هذا الأمر أن الفتى نفسه ملبوس، فكل هذا الدنس لا يأتي من عمل بسيط.

إن كل تفصيلة في حياة طه يشوبها أثر من عالم الشياطين، كنا قد اتفقنا أن يكون أول ما ألمسه تلك المرة هو وسادة السرير؛ فمن رأي ليل أن ما تفكر فيه في آخر النهار وقد يتبعك حتى لأحلامك هو أهم وأكثر ذكرياتك حدة بالإضافة إلى أنه في حالة سقوط جسدي من الجيد أن أكون جالسًا على الفراش محتضنًا وسادة.

جلست على الفراش، وتمتمت المعوذتين، ودعوت الله راجيًا الستر ثم أخرجت من جيبي قطعة خشبية مغطاة بالمطاط اشتريتها خصيصًا لأضعها بين أسناني قبل أن أخلع القفاز وأجذب الوسادة التي غرقت بالتموجات والمشمة في يدي الأخرى ليضرب البرق بعد إحدى وعشرين دقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت آخر ليالي رمضان، لم يكن بالضبط يوم الوقفة كونه أول أيام العيد الصغير، ولكن اتُفق على تسمية اليوم الذي يسبق أي عيد بيوم الوقفة.

كان إجازة مدرسية قضيت نهارها نائمًا في استعداد لليلة وقفة أسطورية سأقضيها مع ابن عمتي ميدو، ولكن استغراقي في النوم كل هذا الوقت جعلني أشعر بالإرهاق بالفعل وأحتاج إلى أن أستزيد نومًا.

حين فاجأني صوت ميدو مناديًا من الشارع خرجت سريعًا إلى الشرفة صارخًا:

- نازلك أهو...

لكن يدًا فولاذية جذبتني من فانلتي. ألتفت لأواجه نظرة أمي النارية وهي تقول لي:

- كم مرة أقولك إن راسك أتقل من جسمك؟! تدلدل راسك كده تاخدك وتقع يتفتح نفوخك وأنا مش حمل لف على مستشفيات، والمصحف اسيبك مرمي في الشارع.

- يا ماما ماكنتش مدلدل راسي! أنا بس بقول لميدو إن أنا نازله.

- بلا ميدو بلا زفت. انزل شوفلي فين باقي صواني الكحك من عند فاتن، الصواني اللي عندنا مش مكفية.

- يا ماما ميدو تحت مستنيني، وأبلة فاتن لسه مارجعتش من الشغل، أنا مش هتأخر أول ما ارجع هعدي أجيبلك الصواني.

وقبل أن تتاح لها فرصة للرد كنت قد تملصت منها متجهًا إلى الباب وهي تصيح من خلفي: يا واد استنى بس خد معاك الصواني اللي جهزت للفرن.

أتجاهلها منطلقًا كالصاروخ ملتقطًا حذائي في طريقي خارجًا من الباب، ليأتي صوتها من بعيد صارخة: ما أنا مش مخلفة راجل يا طه! هنزل أنا أودي الصواني!

أرتدي حذائي على درجات السلم، وما إن أخرج من باب العمارة حتى أجد ميدو واقفًا يتحدث إلى أمي في الشرفة وهي تقول له: مش عاوزة شغل صياعة وقلة أدب، خلي بالك منه، ومتتأخروش.

أجذب يده وأنا أقول بصوتٍ عالٍ دون أن أنظر لأعلى: لازم بقى نمشي يا ماما علشان مانتأخرش.

ننطلق مهرولين غير ناوين على شيء محدد دون الابتعاد عن مرمى بصر أمي.

- هنروح فين؟

يسألني ميدو وقد بدأنا في تهدئة خطواتنا، وقد خرجنا على الشارع.

- عاملك مفاجأة...

أقولها متحمسًا.

- أول حاجة هنطلع على بتاع البيتزا اللي عند الخزان.

- اشمعنى؟

- ده طلع بيعمل عروض تشتري بيتزاية وتاخد عليها بيتزاية هدية...

يقف ميدو فجأة: طب وده بكام؟

- ماتقلقش ياعم معايا فلوس، أنا محوش تلاتين جنيه.

- إيه ده طب استنى! عندي حاجة أصيع.. ما تيجي نأجر فسبة.

أقف مفكرًا فيما يقوله: وأنت معاك كام؟

- أنا معايا ١٥.

يقولها بفخر وهو يربت على جيبه.

- طب وهيكفي كده؟

- ياعم إحنا هنأجر فسبة واحدة، أسوقها واحنا رايحين وأنت تسوقها واحنا جايين.

تختلط الإثارة بالخوف من أمي لو عرفت، أنا الآن في الثانية عشرة من عمري، ولم تتوان لي أبدًا فرصة ركوب الفسبة، بينما أرى أطفالًا في التاسعة والعاشرة ينطلقون بها في الشوارع من حولنا.

لن يكون أسوأ شيء أن أخفي عنها أني أخذت الفسبة في جولة، ليس وكأني أتعاطى مخدرًا أو أدخن.

ألتفت إلى ميدو وأقول له بحسم: أنا موافق. ناخد لفة ولا اتنين كمان ونجيب بيتزاية صغيرة بدل الوسط.

يرد بحماس: هو ده الكلام، وبعدين إحنا هنتعلف كحك بالليل.

بخطوات سريعة نعود ناحية المنزل ثم نتجه يسارًا في اتجاه محل الفيديو الذي يجاوره نصبة صغيرة تؤجر دراجات و«فِسب»، يتولى ميدو الاتفاق، ويختار لنا فسبة خضراء فسفورية لننطلق في مغامرتنا.

أخذ مقعد القيادة في اللفة الأولى وجلست خلفه.

أصرخ في أذنه: خلي بالك يا ميدو ماتجيش ناحية المربع بتاع البيت أحسن ماما تلمحنا وتتكد علينا بقية العيد.

يصرخ قائلًا شيئًا ما في الهواء، لا أفهم منه أي شيء، حيث إنه كان قد قرر الخروج على الشارع الرئيسي.

فأصرخ مرة أخرى في أذنه: أنا مش سامع حاجة، بقولك تعالى نروح ناحية شارع العريش، خلينا نبعد عن هنا خالص.

يهز رأسه نافيًا وهو يقول شيئًا آخر غير مسموع.

- يابني مش سامعك!

يدير رأسه ناحيتي، محاولًا إيصال كلماته، وفي تلك اللحظة تظهر حفرة في الطريق تخل بتوازن الفسبة لننقلب مسحولين على الطريق الأسفلتي، وتتعالى من حولنا أصوات زمارات السيارات، التي تحاول تفادينا.

لحظات تمر قبل أن يستوعب جسدي الألم وشعور حارق في كفي التي انسلخت طبقة رقيقة من الجلد من عليها، أرى ميدو، كان قد قام ووقف بالفعل، متجهًا ناحية الفسبة ليطمئن عليها، ثم يأتي الصوت الذي يجمد الدم في عروقي، أجد صوت أمي تصرخ باسمي، التفتُّ لأجد أننا قد سقطنا أمام الفرن تمامًا، وهي قادمة تركض مرددة اسمي بلا توقف في هيستيريا.

ما إن اقتربت مني حتى رفعتني من على الأرض وهي تتأمل كل جزء فيّ، وتنظر بعين أغرقتها الدموع.

- طه.. أنت كويس؟

من صدمتي لا أستطيع الرد، وهي تكرر السؤال حتى يأتي صوت ميدو من خلفنا:

- ما تخافيش يا عمتو، دي خرابيش بسيطة.

تنظر له أمي صارخة: اخرس أنت خالص، أنت السبب.

ثم تنظر لي نظرة أخرى متفحصة، وتربت على شعري قبل أن تقول: أنا هوريكم أسود عيد في حياتكم، يلا انجروا قدامي.

بالطبع ترفض أن تجعلنا نركب الفسبة مرة أخرى لإعادتها، فنجرها بجوارنا حتى النصبة التي تخرج في صاحبها جام غضبها، متوعدة إياه بإبلاغ الشرطة عن نشاطه لتعريض كل أولئك الأطفال للخطر.

ثم تأخذنا مصطحبة إيانا للصيدلية.

نتبعها في صمت وقد انفطر قلبي على البيتزا التي لن آكلها، والفسبة التي لم تُتَح لي فرصة قيادتها، بينما يلهي ميدو نفسه بمحاولة التوازن على حافة رصيف شارع المطبعة الطويل، والميكروباصات تتصارع من جانبنا محاولين إنهاء دوراتهم سريعًا بالتأكيد لقضاء احتفال الوقفة التي سأحرم منها، وأضواء الميكروباصات المبهرة تتوالى في سرعة كقطارات متتابعة.

أشعر بالحنق من بال ميدو الرائق، وألتفت إليه قائلًا: على فكرة عمتو هتتكد عليك أنت كمــ...

قبل أن أنهي كلماتي، وبعد أن رفع ميدو رأسه ناحيتي، اختل توازنه من على الرصيف ليهبط على قارعة الطريق مباشرة أمام ضوء باهر قادم من ميكروباص مسرع.

في أقل من ثانية أجد يد أمي قد جذبته من قميصه، رافعة إياه لحافة الرصيف، ليمر الميكروباص المسرع مطلقًا نفيرًا طويلًا وسبة غابت بعيدًا.

نبضات قلبي التي كانت تسارعت حتى وصلت لحلقي تستمر في تسارعها بفعل القصور الذاتي، وأنا أرى نظرة ميدو المشدوهة لعين أمي ويده المدلاة بجانبه ترتعش من الصدمة، ثم تنطلق مني صرخة لاإرادية حين تدفع أمي بجسد ميدو إلى قارعة الطريق لتدهسه عربة أخرى مسرعة قادمة من الجانب الآخر.

يتوقف كل شيء.. عدا أنا وأمي التي تستدير ناحيتي وتحتضنني ملثمة جبيني ثم تتناول يدي التي أشعر مع لمساتها بنيران في كفوفي ولكنني لا أملك الكلمات ولا صوت للتأوه جاذبة إياي لأتبعها ناحية المنزل وسط أصوات صراخ من راكبي الميكروباص الذين تجمهروا حول جسد ميدو، وصوت أمي الصارم الذي جاء قائلًا: بص قدامك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يأتِ الضياء، بل أجد نفسي في جوٍّ قاتم بلون الرماد. تحت أقدامي نهر من رمادٍ يتموج سامحًا بنظرة لمكنونه. بقايا نيران تلفظ آخر أنفاسها.

ثم جاء صوته: عايز مني إيه يا خالد؟

كدت لا أتعرفه في البداية، ولكن برغم الرماد المشتعل الذي يغطي سترته الجلدية، وشعره الطويل ولحيته التي لم أرها من قبل؛ كان طه يتقدم ناحيتي سائرًا على بحر الرماد دون أن تغوص قدماه.

- طه! ده أنت بجد؟ أنت فين يا طه! إحنا قلقانين عليك.

لا يتوقف ولا تتغير وتيرة خطواته مقتربًا وهو يقول: أنت شفت حاجات كتير ماكنش المفروض تشوفها. كبرت وشربت صنعة جدتك.

أشك للحظة أنه يتحدث إليّ دون أن يستطيع سماعي، فأحاول مرة أخرى: يا طه أنا بحاول ألاقيك! أنت سامعني؟ أهلك خايفين عليك، وعايزينك ترجعلهم.

يتوقف فجأة وينظر لي وتتسع بسمة مخيفة على وجهه وهو يقول: وأنا بحاول أرجع لأهلي.

كان هذا المكان يوترني بالفعل، ورغم أنه على مرمى البصر لا يوجد سوى مساحات مفتوحة تحتوي على الرماد فقط؛ إلا أني أشعر بضيق وكأني معلق في مصعد مغلق أحارب من أجل أنفاسي، وأقاوم رهاب الأماكن المغلقة.

كانت عينا طه أكثر سوادًا مما أتذكر، وفمه حين يتحدث وقد اقترب مني وكأنه مطلي باللون الأسود.

تراجعت خطوة للوراء، ومددت يدي لجيبي أتلمس المشمة وأنا أهمس: ليل.. ليل.. أنا فين؟ هو ده حقيقي ولا أنا بحلم؟

لا رد...

أرى نظرة اشمئزاز قد رسمت على وجه طه ولرعبي أخرج لسانه مبللًا شفتيه قبل أن يتحدث فقط ليظهر أن لسانه أسود تمامًا ولعابه الذي يبلل به شفتيه هو مادة سوداء لزجة، ثم ينطق بصوتٍ كالفحيح: أنا ليا دين في رقبة جدتك، كنت مأجله، لكن بما إنها بعتتك ورايا؛ فأنا مش هربي الكلب، أنا هقتل صاحبه.

- خ خ خ... خالد... خالد...

الضوء الساطع المبهر... صوت ليل في أذني: خالد.. خالد..

يخفت الضوء رويدًا رويدًا ويتبدل الصوت لأسمع صوتًا قادمًا من خارج رأسي.

- خالد...

كان أبي... جالسًا على حافة فراش طه بجواري، ساندًا رأسي إلى يده، وبيده الأخرى ينثر قطرات ماء على وجهي، وخلفه تقف أمي وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

بعد أن يهدأ جسدي أتوقف عن الارتعاش تمامًا وتبدأ أنفاسي في الانتظام. يتناول أبي القطعة المطاطية من فمي، ويسقيني من كوب معدني بعض رشفات من الماء البارد.

وبصوت ثابت يسألني: أنت بخير؟

أومئ برأسي غير قادر على الكلام بعد، فيومئ رأسه بدوره مربتًا على كتفي، ويقف موجهًا حديثه لأمي: متخافيش نوبة وعدت.

ثم يتجه خارجًا من غرفة طه.

أغمض عينيّ للحظات أشعر أثناءها بجلوس أمي بجواري على السرير، وأتمنى لو ترحل وتتركني لدقائق.

ألملم شتات ذاتي وأسأل ألف سؤال لليل، ولكنها على ما يبدو تحاول أن تمارس دورًا ما لا حاجة لي به.

كان أبي المهندس نجيب كريمًا كفاية ألا يحاول تمثيله.

آخذ نفسيًا عميقًا قبل أن أفتح عينيّ وأسأل: هو... هو طه يعرف تيتة إبتسام؟

ترتسم أمارات الدهشة على وجه أمي، ولكنها تجيب: لأ خالص، ولا عمره قابلها.

أسكت مفكرًا للحظات، ثم أخاطر بسؤال: طب ومامته الله يرحمها كانت تعرف تيتة إبتسام.

- تعرفها بس ماكنتش بتحبها.

أنظر إليها طالبًا الاستزادة: قبل أما تحمل في طه راحتلها مرة، كان بقالها سنين هي وجوزها بيحاولوا يخلفوا، بس مافيش فايدة، فراحت لجدتك تساعدها، بس جدتك رفضت على حسب قولها، وعلى حسب قول جدتك إن دي مش حاجة تقدر تعملها أصلًا وإن أي حد هيقولها إن في حل لمشكلتهم دي غير حلول الدكاترة هيبقى نصاب. زعلت قوي أم طه ساعتها وقالت إن جدتك مش عايزة لها الخير.

- طب بس هي حملت في طه بعدها!

- آه إرادة ربنا سبحان الله! بس عمك الله يرحمه مات وهي حامل.. هي ماعرفتش أصلًا إن هي حامل إلا بعد أما مات بأسبوع. حظه وحش قوي الواد طه ده من قبل ما يجي الدنيا.

- طب هو ابن عمتي الكبيرة اللي مات وهو صغير كان مات إزاي؟

مرة أخرى ترتسم علامات الدهشة على وجهها ولكنها لا تمانع في الإجابة وهي تقول: يا عيني خبطه ميكروباص ليلة العيد، كان ماشي في شارع ضلمة والواد صغير، وسواق ميكروباص كان باين محششِ ولا ضارب حاجة.

- هو كان لوحده يوميها؟

- مش فاكرة، بس باين كان رايح لطه ساعتها.. أنت أسئلتك غريبة ليه يا ابني؟ وإيه اللي فكرك بالحاجات دي كلها؟

- مافيش يا ماما، أنا بس بقالي فترة بعيد عنكم وعن الحاجات دي، فبس بفتكر مين يقرب لمين ومين حصله إيه. مش غريبة المصايب دي كلها اللي بتحصل لأبويا وإخواته؟

- كل واحد بياخد نصيبه من الدنيا يا ابني.

استأذنت أمي أن أبقى في غرفة طه لساعتين إضافيتين لأرتاح قليلًا، وافقت على الفور واعدة إياي أن تعود بعد قليل ببعض من الغداء. شكرتها وإن كنت قد نويت أن أرحل قبل أن تعود.

انتظرت دقيقتين بعد أن خرجت لأتأكد ألا تكون على مرمى سمع قبل أن أتحدث مع ليل قائلًا: يعني كل المصايب اللي حصلت في عيلة أبويا دي يا ليل وإحنا اللي عندنا لعنة الوارثين! دول ملعونين لعنة أنيل من أي حد!

- إذا أعدنا ترتيب الأحداث فإن كل تلك اللعنات تبدأ من نقطة واحدة.

- أي نقطة؟

- أم طه ذهبت إلى جدتك لطلب مساعدة في مشاكلها مع الحمل، ورفضت جدتك أن تساعدها، فقررت أن تتولى الأمر بنفسها. في الأغلب استحضرت جنًّا عاشقًا، وكانت حياة زوجها ثمن هذا الاستحضار.

- علشان كده تيتة مارضيتش تساعدها؟ كان تمن الطفل حياة حد؟

- لا في الحقيقة السبب كان أن أي طفل يأتي بالسحر لن يكون آدميًّا بالكامل، فما أحضرته للعالم «ابن عمك» في الحقيقة هو هجين.. نصف آدمي، ونصف شيطان.

أستغرب كلماتها، فكل ما أتذكره عن طه كان الهدوء والخجل الشديد.

- وثمنًا آخر دفعته لإحضار هذا الهجين أنها تخلت عن أي إيمان ورحمة في قلبها. حين تعبث بالسحر ومع الخوافي دون أن تكون من الوارثين فإنك تتخلى عن الكثير، وتلقي بذاتك إلى الجحيم، فالشياطين لا ترحل أبدًا، وتقتات على روحك حتى تلاقيهم في مصيرك المحتوم في الجحيم.

يهزني حديثها أن أسأل سؤالًا أخاف من إجابته، هل حكم عليّ كواحد من الوارثين أن أنتهي في الجحيم أيضًا؟

ثم تُكمل هي: كل ما تخلت عنه من أجل طه، فكان هو الشيء الأوحد الذي تحيا من أجله، وأي تهديد له ولو حتى متخيل كانت تواجهه بالدم كما حدث مع الطفل المسكين، وبعدها، وقبل وفاة عمتك الكبرى يبدو أنها استنتجت أو عرفت بشكل ما أن أم طه كانت السبب في مقتل ولدها وهو ما يفسر كلماتها الأخيرة لطه، واتهامها له وأمه بالقتل.

أقاطعها قائلًا: ماهو ممكن كانت بتتكلم على أخوها اللي مات أبو طه؟

- محتمل أيضًا، ولكن في استخدامها صيغة الجمع فأنا أميل إلى التفسير الثاني. لا بد أنها كانت إفاقة من غيبوبة سكر ظنوا أنها ماتت، يبدو أن طه قد قتلها ساعتها.

- طب مش ممكن تكون رجعت للغيبوبة تاني بعد ما فاقت؟

- لا أظن، فالطبيب الذي أخرج تصريح الدفن بعدها كان سيعرف أنها غيبوبة سكر وليست وفاة. إذًا فكل المآسي التي أصابت عائلة أبيك بدأت من تلك النقطة، وتنتهي عند طه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

كان هناك شعور غير مألوف مع آخر درجات سلم أقطعها قبل الوصول لباب منزلي.

كان مؤقت نور السلم قد انتهى ولا يضيء الدور إلا ضوء الصالة الذي يتسرب من خلف شراعة الباب الزجاجية منعكسًا على الحائط.

شيء ما لم يكن على ما يرام؛ في هذا الوقت من الليل تكون جدتي في الفراش بالفعل، مطفئة أنوار الصالة وتاركة اللمبة السهاري الصفراء، وهناك أيضًا ذلك الصمت المطبق، أشعر به ثقيلًا حتى أكاد أسمع نبض قلبي في أذني.

شيء ما خطأ..

شيء ما ليس في مكانه.

حقيقة لا أرغب في تعلمها..

شيء ما...

يتردد أصبعي في الضغط على جرس الباب، وراحة يسراي تتلمس الجزء الخشبي من ضلفة الباب، ومع لمساتي يصدر صرير خفيف، شعاع من الضوء يتسع ما بين الضلفتين، مع اتساع انفراجة الباب وأمامي هنا تقع الحقيقة وألتقي بواقعي الجديد.

أجر أقدامي جرًّا لمنتصف الصالة، أحاول أن أجثو على قدميّ ولكني أقع عوضًا عن ذلك، ويدي المرتعشة لا تطاوعني أن أمس جسدها...

أقلب جسدها برفق لتواجهني عيناها المفتوحتان الخاليتان من الحياة، فمها الفارغ شاهد على أنها رحلت قبل الأوان، ولم تكن قد نطقت بآخر كلماتها بعد.

وأرى على خديها تموجات النهر الدنس، الذي يخبرني أن الأسوأ قد حدث، ولم تكن وعكة صحية هي التي أفنتها.

أخرج المشمة من جيبي وأمد يدي متلمسًا خدها المجعد وتمر الإحدى والعشرون خفقة كالدهر قبل أن يضرب البرق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أقف أمام باب الشقة القديمة مستحضرًا كل ما ملأ قلبي وفاض من كرهٍ لمن يقف في الجانب الآخر. تلك المرأة لولاها لما كنت أواجه هذا الوجود المضني. لولاها ما كان هذا الجحيم الذي مرت به أمي، ومع ذكرى أمي أفقد صبري.

أركل الباب بقدمي مرة فالثانية لينفتح على مصراعيه، وأجد العجوز أمامي تقف مدققة النظر بي.

تتحرك شفتاها دون كلمات قبل أن تقول: أنت طه.

لأجيبها ساخرًا من مكاني: لأ مبروكة فعلًا يا حاجة إبتسام. أنا طه.

لا تزال تدقق النظر وتحرك شفتيها كأنها تتمتم بكلمات غير مسموعة حتى اتسعت عيناها وشهقت.

إذًا.. فقد عرفت ما أنا حقًّا.

تتسع ابتسامتي فتقول: أمك الملعونة.. المجنونة بنت الكلب...

نعم.. بالتأكيد عرفت ما أكونه.

- إنتي السبب. إنتي سبب كل حاجة.. أنا كنت جاي آخد الورق اللي سهيلة خدته من أوضتي، وكنت عايزك تفضلي عايشة لحد ما تشوفي اللي هعمله. بس لأ، مش هقدر أسيبك أكتر من كده.

تضع يدها على صدرها في سرعة ممسكة بقلادة ترتديها.

- سون سويلدي بيلا حشراو لور كتمز لعنت أيدر نفسله شيطان طاشر...

أصرخ في سرعة.

- بيكده جوق سوز أملك عهدك وأسترد الدين وآخذ كلمة من على لسانك باسم طه.

تتسع عيناها في هلع وهي تكرر الكلمات في سرعة ثم تقف عند نفس الجزء من التعويذة غير قادرة على النطق.

تكررها مرة أخرى ويعجز لسانها مرة أخرى...

أتنفس الصعداء ثم أقول لها: كل دين لازم يتوفى يا حاجة إبتسام.. وأنا اللي ملكت دينك وأهو اتوفى، والكلمة اللي إنتي مديونة بيها اتاخدت.

ثم أقترب منها وأقول بتلذذ: طاشر محرمه روح كورو هلك ويماز...

وأصمت للحظة قبل أن أكمل وأنا أشعر بجسدي كله يرتجف من الحماسة: بيكده هماري.

تحاول أن تصرخ دون فائدة، وروحها تحترق بداخل جسدها.

تمد يدها وكأنما تحاول أن تجذب الهواء، وتدفع به لرئتيها دون فائدة لتقع أرضًا وتهمد حركتها للأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنتهي الرؤية وأنتهي معها.

لا يزال عدم التصديق يتملكني وأنا أمسك بيد جدتي.

أملي عيني من جسد جدتي وعقلي لا يصدق ما يراه، رافضًا أن يكون هذا حقيقيًّا.

وما الفائدة من الإنكار الآن...

لقد عرفت ما سأجده قبل أن أراه لكنني أردت رؤيته بشدة.. وها أنا نادم على ذلك.

لم تأتِ الدموع...

بل كان هناك غضبٌ مستعرٌ بداخلي...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا * وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ * لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ لِكَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)

- البقية في حياتك.

- حياتك الباقية.

أتمتم بالرد وقد أفلت المعزي يدي بالفعل، وانتقل لمصافحة أبي الذي يقف بجانبي أمام سرداق العزاء الذي امتلأ عن آخره.

أشعر بيد تربت على كتفي، ويد تصافحني من المعزي الذي يليه قائلًا: البقاء لله.

يتوقف عقلي عن العمل للحظات، وقد طار منه الرد المناسب لأتمتم «حياتك الباقية» مرة أخرى. لا أعتقد أنه حتى سمعني أو اهتم بردي، من صوت التلاوة.

ألتفت مرة أخرى عن يميني باحثًا عن أي معزين آخرين قادمين، ولكن كان كل القادمين نساء يتجهن إلى باب العمارة حيث يؤخذ عزاء السيدات؛ فأقرر أن أجلس قليلًا، وأجد أن أبي قد سبقني بالجلوس بالفعل.

أسلم ظهري للمقعد الخشبي غير المتوازن، وأثبت نظري على نقطة ما في الفراغ مقاومًا رغبة غريزية في أن أتحسس المشمة في جيبي، والتي ستأتي بصوت ليل إلى رأسي.

في تلك اللحظة أشعر أنني أفتقد صوتها، وأنه قد صار مألوفًا.

أنا في حاجة للمألوف.. في ذلك الواقع الغريب الذي لا أزال أرفضه.

ينتهي القارئ من تلاوة الجزء، وأرى من آخر السرداق شخصين يهمان بالرحيل.

أنتبه واقفًا، وأمد يدي في تلقائية لاعتيادي على مساعدة جدتي على النهوض، ولكن أجد وجه أبي الذي وقف بالفعل ينظر ليدي باستغراب.

يصافحه المعزيان في صمت، ويصافحاني بشدة على الساعد مكررين: شد حيلك.. البقاء لله.

لأتلعثم مرة أخرى وأجد نفسي أقول: لا إله إلا الله.

ألمح نظرة جانبية من أبي وهزة رأس تبعث لي برسالة أني أخفقت بشكل ما.

يبدو أنني لا أصلح حتى لتلقي عزاء. بالتأكيد هذا ما يفكر فيه.. هذا الفتى لن يكون جديرًا حتى بالوقوف في عزائي.

أجز على ضروسي، مبتلعًا غصة تملأ حلقي، وأدس يدي في جيبي متلمسًا المشمة.

- ونعم بالله.

جاء صوت ليل.. بتلك الكلمات.

لأرددها وأنا أصافح المعزي التالي حين قال لي: البقاء لله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحل أبي قبل أن يرحل آخر المعزين، دون وداع كعادته، أو ربما لأنه يتوقع رؤيتي في المساء حين أعود مع أمي. لم أفكر حقًّا ما الذي سأفعله بعد انتهاء العزاء.

يقترب مني آخر حفنة من المعزين شادين بأزري ومن خلفهم أرى وليد الذي كان أول الحاضرين، وآخر الراحلين بعد أن ساعد في جمع المقاعد ليشير لي بيده أنه سيراني غدًا.

فأهز رأسي ممتنًا وأتوه مرة أخرى وسط لغو الجمع.

حين صعدت إلى المنزل، وجدت أن آخر الراحلين من النساء كانت ندى وقد أصرت أن تساعد أمي على ترتيب البيت.

دون كلمات تلقيت منها تربيتة على الكتف، وصرت أنا وأمي في منزل جدتي.

أقف في منتصف الصالة، أشعر كأنني جندي في وضعية انتباه، ينتظر الأوامر.

لا ألوي على شيء، ولن يحركني من مكاني إلا أمر مباشر.

تقترب مني أمي وتحتضنني بشدة ومع افتراقنا تدس شيئًا معدنيًّا في يدي.

لا أحاول حتى النظر ليدي وقد تعلقت عيناي بها وهي تلملم حاجياتها وتخرج من المنزل.

لم أنظر ليدي لدقيقة أو أكثر بعد أن أغلقت الباب.

هل نسيتني؟ هل نسيت وليدها الذي صار وحيدًا؟.. ألن تأخذني معها؟.. ألم تنته عقوبتي لذنب لم أجنِه؟

ثم نظرت ليدي لأجد ميدالية عليها شعار مصر للتأمين وقد اصفرت باهتة من فعل السنين.

كانت ميدالية جدتي مرفقة بها مفاتيح المنزل.

قد صرت يتيمًا.. وحيدًا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهى بي الأمر في منزل وليد.

جلست وحدي ما يقرب من الساعتين في المنزل ولكن فشلت في أن أفعل أي شيء سوى تأمل أثر النهر الدنس على الأرض مكان سقوط جدتي.

حاولت الهروب بالجلوس على المقهى، لأفاجأ بوليد قادمًا ليخبرني أن ندى قد اتصلت به وأخبرته أنها رأتني أجلس على المقهى وحيدًا، وأنه يجب عليه أن يأتي ليصطحبني.

وقد كان.. ولم يستطع أن يخفي حماسته أن ندى تملك رقم هاتفه.

وظل طوال الليل بعد أن ترك لي فراشه، وافترش الأرض بجواري ما بين معزيًا، وما بين معددًا لمحاسن وجدعنة ندى التي يراها بألف رجل، وقص عليّ مكاملتهما الهاتفية بالتفصيل أكثر من عشرين مرة، وكيف كان لكل كلمة معنى لا يلاحظ للوهلة الأولى، وكل المعاني تؤدي إلى نفس النتيجة، أنها تهيم به عشقًا.

في اليوم التالي أرسلت وليد إلى شقتي كي يأتي لي ببعض من احتياجاتي، وقد عاد بحقيبتين من البلاستيك بعدما أصر على مكوثي معه لفترة.

يضع الحقيبتين أمامي وهو يقول: بص ده اللي أنا عرفت أجيبهولك، مالقتش مكنة الحلاقة اللي قلتلي عليها دي، فجبتلك ده وهبقى أسلفك مكنة أبويا الله يرحمه.

يخرج من جيبه علبة أمواس اللورد الزرقاء.

أتناول منه علبة الأمواس وأنا أقول: والله يا وليد مش عارف أقولك إيه، تعبتك معايا.

وليد: يابني ماتقولش كده بس ولا تعب ولا حاجة. صحيح التليفون بتاع البيت مابطلش زن من ساعة ما وصلت، أنا قلت في حاجة ولا حد عاوز يعزي فرديت، لقيته الراجل جلال ده، سأل عليك فقلتله اللي حصل، بيعزيك وسابلك رقمه علشان تكلمه لما تقدر.

يخرج من جيبه الآخر ورقة ويمدها نحوي.

أتناولها منه.

- التليفون عندك أهو لو حابب تكلمه، أسيبك تغير واروح أشوفلنا حاجة ناكلها علشان أكيد أنت ماكلتش طول اليوم.

ينصرف وليد مغلقًا باب الغرفة خلفه.

أضع الأمواس إلى جوار التليفون، ثم أسحبه لأضعه على ساقيّ مديرًا قرصه العتيق.

في المحاولة الثانية للاتصال يأتيني صوت جلال وقد تعرف على صوتي عن فوره: خالد! ماكنتش متوقع إنك هتتصل بسرعة، كنت حابب أعزيك، البقاء لله يا خالد، لو الوقت مش مناسب وتحب تتكلم في وقت تاني فأنا متفهم.

- سبحان من له الدوام.. لا أبدًا، في حاجة أقدر أساعد فيها حضرتك.

- أنا كنت حابب أعرفك إن واحد من اللي بيجيبولي الأدوية عرف مكان شهاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يا جدعان مش قلنا مافيش سنايبرات!

انطلق صوت أحد المراهقين الجالسين بجوارنا متذمرًا، أتبعه عن فوره بصوت بذيء من الأنف وهو يقول: طارق مِرَقَّد فوق الكنيسة ومعاه سنايبر. طب وديني الدور الجاي بوازيك وهفلقك.

ويختتم تهديده بخبطة على لوحة المفاتيح لنجد في لحظة الشاب الملتحي الذي ينادونه بالسني ممسكًا بتلابيب المراهق وهو يقول: والنعمة لو الكيبورد ده باظ أنا اللي هفلقك، وخلاص ده الـ«لاست» بتاعكم.

كان السني هو من يدير المكان ويجلس على مكتب بجوار المدخل لا يبرحه أبدًا إلا في حالات استثنائية مثل ما حدث الآن.

يلتفت لي وليد الذي يجلس بجانبي وهو يقول: والله العيال باظت من ساعة السيبرات والألعاب دي.

ثم نقل عينه للشاشة التي أمامه وهو يقول: عايز تتغلب على أنهي مابة النهارده؟

أتأمل في شاشة البدء أمامي الخاصة بلعبة حربية ما لا أطيقها لأقول: أنا زهقت من القرية دي خلينا في الجسر.

يومئ برأسه مجهزًا لدورٍ جديد وأنا أصفر في ملل.

كان ذلك رابع يوم نأتي فيه لهذا السايبر في انتظار أن يظهر شهاب.

في أول يوم قضينا عدة ساعات على برامج المحادثة، ولكن نال منا الضجر، وقررنا أن نجرب واحدة من الألعاب التي يدمنها أغلب رواد المكان.

ليلة أمس حاولنا أن ننضم لفرق بعض الأطفال الموجودين بالمكان، ولكن بالطبع المواجهة لم تكن عادلة على الإطلاق، ولم نستطِع الصمود ثانيتين أمامهم؛ فآثرنا السلامة، واللعب معًا على خادم محلي.

مع كل حركة من خلفي ألتفت بتلقائية باحثًا في الوجوه عن شهاب.

كان العجوز جلال متأكدًا من معلومته، أن شهاب يأتي هنا في بعض الليالي، الأمر الذي دفعنا إلى إبدال وردياتنا للورديات الصباحية، وقضاء نوبة مسائية مطولة في هذا المكان.

لم يبتلع وليد جزءًا كبيرًا مما أخبرته به، ولكن قرر أن يساندني فيما يراه جنونًا على أي حال.

- إيه يا عم غطست فين!

يأتي صوت السني، تتبعه طرقعة.

ألتفت لأجد أنها قبلات على وجه شهاب!

كان هو بلا شك.. عرفته من ذكريات انعكاساته في الرؤية. هو اللعين بالتواء شفتيه، ومطه لآخر كل كلمة، وتلك النظرة التي تخبرك أنه وغد أثيم.

بهدوء أربت على ذراع وليد، الذي ينزع السماعات من على أذنيه، ويتبع إشارة يدي بعينيه ليلقي نظرة، ثم يهمس لي: متأكد إن هو؟

أهز رأسي في صمت وأنا أتأمل الشاشة المملوءة باللون الأحمر القاني، وعداد ينبئني بالوقت الذي أحتاجه لإعادتي للحياة.

أنظر من حولي متفحصًا، لا يوجد في المكان الآن سوى اثنين من المراهقين شبه المقيمين هنا هم أصدقاء للسني، وشهاب الجالس بجواره مشغولًا بلف سيجارة حشيش أو بانجو أو مخدر ما. لم أستطع قط التفرقة بينهم.

جيد، إذا تطور الموقف بشكل ما، لا نريد عددًا كبيرًا من الأشخاص حولنا.

عقبة واحدة أن هناك كاميرا مراقبة في ركن السايبر. إذًا لا مجال لأي مساعدة من طنطل.

حسنًا.. فليكن ما يكون.

أقف وآخذ الخطوتين اللتين تفصلاني عن مكتب السني وأسمع كرسي وليد يتحرك ولكني ثابت العينين على شهاب.

يقول السني دون أن يرفع رأسه: خلاص يا شباب؟

أتجاهله وأنا أوجه حديثي إلى شهاب: طه فين؟

- طه مين؟

يأتي رد السني الذي رفع عينيه متأملًا إياي.

- لأ لا مؤاخذة أنا بكلم صاحبك اللي بيلف بانجو.

يأتي صوت وليد على الفور: حشيش يا خلُّود.

أحاول أن أتماسك بعد تصحيح وليد وأوجه حديثي لشهاب مرة أخرى.

- طه فين يا شهاب؟

يدس شهاب التبغ الملغم في جيبه: أنت مين يا نايتي؟

يتدخل وليد عن فوره: لأ النايتي ده الحَاجَّة اللي بتجيبهولك، رد عدل علشان ماتزعلش.

مفيد وليد في تلك المواجهات، فأنا لا أعلم قط كيف أرد. خاصة أن العراك في مصرنا الحبيبة يتكون من خمسة وتسعين في المئة من تلك المناوشات الكلامية، وخمسة في المئة المارة يحجزون بين الطرفين.

يتوقف المراهقان أصحاب الشاب عن اللعب ويصغيان إلينا. لقد تصاعد الموقف مع ذكر الحَاجَّة.

- طب أنا عاوز أزعل.

يقف شهاب، لا أتذكر أنه يتفوق عليّ طولًا، ويدس يده في جيبه فأتوقع الأسوأ.

لا مزيد من المناوشات الكلامية إذًا.

ألتفت لوليد وأقول في صرامة: وليد، كسَّر الكاميرا.

تمر ثانيتين يستوعب الجميع الكاميرا التي أعنيها، ليأتي صوت السني أخيرًا: أنت عبيط ياض أنت وهو! تكسر إيه!

- لا يابا ده بيحاولوا يخوفونا علشان الدم والطرطشة وكده، طب تمام.

وفي خطوة واحدة يصعد شهاب فوق الكرسي الخشبي الذي كان يحتله صديقه منذ دقيقة ليجذب الكاميرا المثبتة في سقف مهترئ لتتدلى على الحائط، ويخرج يده من جيبه حاملًا كاتر ملفوف بشريط لاصق.

- ها.. هتعملوا إيه يا أشقيا؟

ترتعش بسمة في ركن فمي وأنا أتحسس المشمة في جيبي قائلًا: هجيبلك العو.

تلك المرة كان الأمر مختلفًا. تلك المرة احتفظت بجزء من وعيي، تلك المرة لم أنتزع شخصًا من مكانه.. بل كان هناك حافظ عهدٍ يأتي ليلبي النداء.

إحدى وعشرون دقة قلب...

إحدى وعشرون دقة قلب وشعرت أني مشاهد.

إحدى وعشرون دقة قلب ومع الثانية والعشرين التفت جسدي الذي لم أعده سيده ممسكًا بتلابيب وليد دافعًا إياه خارج المقهى، في الدقة الخامسة والعشرين كان جسدي قد قفز متعلقًا بالباب الحديدي للمكان مغلقًا إياه.

مع الدقة الحادية والثلاثين كان السني تحت أقدامي، وأطيح بجسد شهاب باتجاه المراهقين الذين كانوا يركضون باتجاهي.

لا أعرف حقًّا أكانوا ينضمون للعراك أم يحاولون الهرب، ولكني لست السيد؛ فلأترك لطنطل هذا القرار.

ما زال الشاب الملتحي يصرخ تحت أقدامي.

ركلة فالثانية يتلون وجهه بالدم قبل أن يباغتني شهاب الذي استعاد توازنه ليختل توازني وأقع خلف المكتب.

يستعيد الكاتر ويضرب به مستهدفًا وجهي.

ترتفع يدي في سرعة ليغوص في كفي طرف المشرط مكملًا طريقه بسهولة إلى ساعدي.

تتطاير الدماء ولكن لا أشعر بأي ألم.

أنا مجرد متفرج.

خفقة قلب قبل أن تتغرس يسراي في أمعاء شهاب الذي تغرورق عيناه بالدموع وتنفر بداخلها كل الأوردة الحمراء قبل أن ينهض جسدي في آلية - غير مبالٍ بالمراهقين الذين استكانوا في ركنٍ- حاملًا شهاب بكلتا يديّ، وملقيًا إياه على المكتب رخيص الصنع الذي انهار تحت جسده.

بيدي التي تنزف أمسك بشهاب من أذنه، ويقترب فمي منها، ثم أشعر بتحكم بسيط في الجسد، يصاحبه بحر من الألم لكني أفهم.

فأسأل سريعًا متحكمًا في أنفاسي: قلتلك طه فين؟

ثم أعود لصفوف المشاهدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحاول أن أخبر نفسي أن الأسوأ قد مر، وأن الألم الذي أشعر به الآن لا يقارن بألم الجرح المفتوح، وألم الثلاثين غرزة اللاتي تحملتهن في صمت كمشاهد صامت، وقد تفضل طنطل مشكورًا بتولي زمام الجسد طوال مدة الخياطة، وتولى وليد الحديث بالنيابة عني مع الأطباء، ولكن ما إن رحل طنطل حتى هاجمتني الآلام بالرغم من المسكنات.

اطمأن وليد قليلًا حين بدأت في التأوه والشكوى من ألمي، بعد أن طال صمتي لعدة ساعات.

انفرجت أساريره وهو يقول: لأ بس طلعت شقي وعفي ياض يا خالد.

- مع إن والله ما يبان عليه! تلاقيك ضربت حبايتين من الفراولة اللي ادتهوملك.

كان ذلك مصطفى الذي أبقينا شهاب عنده في السنترال المغلق، بينما تخيط لي الغرز التي كنت محظوظًا أن الكتر كان أبعد من الشريان بسنتيمتر أو أقل كما أخبرني الطبيب.

- ياض فراولة إيه الواد عصب!

يقولها وليد مربتًا على ساقي لأصرخ متأوهًا قاتلًا أي مصداقية لمقولته.

- آه باين!.. المهم هنعمل إيه في البلوة دي.

يقولها مصطفى مشيرًا إلى شهاب المربوط داخل كابينة السنترال الضيقة فوق كرسي خشبي.

قبل أن أنطق يشد وليد على ساقي مشيرًا لي بالصمت لأبتلع كلماتي وأكتم تأوهًا كاد أن يصدر مني مرة أخرى.

ويجيب وليد: لأ إحنا هنأدبه بس، يجيب اللي سرقه، لو هنتقل عليك في المكان نصاية كمان و... وهنسيبه لحال سبيله.

- مكانك يابو الصحاب.

يقولها مصطفى ثم يهم واقفًا يسحب مفتاحًا وقفلًا من درج مكتبه مسلمًا إياه لوليد، وهو يقول: اقفل وراك، وهعدي عليك الصبح آخد المفتاح.

يمد يده فأسلم بيسراي، ليقول لي: ألف سلامة عليك يا وحش.

أرد رغمًا عني متسائلًا بصوتٍ خافت: معلش أنا برضو مش عايز أسببلك مشكلة يا مصطفى، وده مكان أكل عيش، هيحصل إيه لو جالك بكرة برجالة ولا حاجة.

اتسعت ابتسامة مصطفى وهو ينظر لوليد.

- مش هزعل من صاحبك علشان مايعرفنيش، ينور هو وصحابه في أي وقت.

يقول لي وليد مطمئنًا: لأ درش مسيطر.

- يلا.. سلام.

يقولها مصطفى ثم يرفع عقيرته متابعًا: وماية النار هتلاقيها في الكابينة الأخرانية.

ويغمز لي أنا ووليد قبل أن يخرج.

أبتسم وقد فهمت أنه يحاول إثارة الرهبة في قلب شهاب تجاه ما ننوي فعله به.

أبحث في رأسي ما بين كل مستقبلات الألم عن أي عذر أطلب به من وليد أن يتركني وحيدًا مع شهاب، ولكن لا أجد، ولا أقوى على التفكير في أي أعذار الآن. يكفي أنه لم يعاتبني على دفعه بعيدًا.

ليكن ما يكون، أحتاج أن أعرف الآن أين طه.

أفتح بوابة الكابينة، ويجره وليد، وأنزع من على فمه أكوام شرائط اللحام اللاصقة، ومن تحتها الفوطة الصفراء التي حشرناها بداخله.

أتوقع أن يبدأ الصراخ أو السباب، ولكن كل ما يأتي هو نظرة كراهية يعقبها صوت مبحوح أشبه بالفحيح وهو يقول: أنت ملبوس زيه.

لا يقولها متسائلًا، بل يقر بواقع لا شك فيه.

- كويس، يعني أنت عارف إنك المفروض تخاف مني زي ما أنت كده خايف من طه.

- أنا مابخفش من طه. أنت اللي تخاف منه لما ييجي يروقك أنت واللي لابسك على اللي عملتوه فيا.

- والله يا شهاب أنا لو أعرف إنه هيجي علشانك ماكنتش تعبت نفسي وسبتك معزز مكرم مربوط لحد ما يجيلك وبعدها اللي يروق التاني يروقه وأنت تتكل على الله في الحالتين.

في توقيت مثالي يأتي صوت وليد متسائلًا: أجيب ماية النار؟

لتزوغ عينا شهاب بيني وبين وليد وهو يقول بنفس لوية الفم المستفزة: في إيه يا عم! ما بلاش كلام أنت وهو مش قده.

يتحرك وليد دون كلمة لآخر كابينة، ويتناول شيئًا لا أميزه من على الأرض ثم يضعه في يسراه.

أنظر إلى الزجاجة الخضراء للحظة، ثم يميز أنفي رائحة الفنيك المميزة، ولكن الرائحة لم تصل كما يبدو لأنف شهاب فتتسع عيناه هلعًا وهو يقول: إنتوا مجانين ولا إيه!

ويبدأ في الصراخ.

- أنت يا عم فكني من هنا... أنا ماعرفش حاجة.

لا نحاول حتى كتم صوته وإن كنت قد شعرت بتوتر عظيم في ذلك الوقت المتأخر من الليل لا بد أن صوته يصل جليًّا إلى كل من حولنا، ولكن يجب ألا أعطيه أي أحساس بأن تلك الضوضاء ستكون ذات تأثير.

تهدأ صرخاته وهو يبتلع الهواء ابتلاعًا لأقول له: طيب هديت كده؟ اغسل وشك بشويهماية نار.

وأقرب منه الزجاجة التي تحتوي على الفنيك ليحاول أن يتراجع فجأة لينقلب به الكرسي الخشبي ويسقط على ظهره، ثم ينقلب على جانبه وقد بدأ في البكاء.

- يا عم أنت بتعمل معايا كده ليه! أنا ماعرفش حاجة!

بصعوبة أجلس القرفصاء بجوار وجهه لأقول له: أولًا أنا لسه ماعملتش حاجة، أنا اللي بيني وبين طه دم، وأنت اللي عايز تضحي بنفسك في النص، فده اختيارك أنت.

- يا عم والله ماعرف مكانه. طه مخاوي وبيعرف مكاني وقت ما بيعوزني يجيبني، ومن ساعة ما جبتله الورق وهو بقى أنيل من الأول.

- الورق اللي سرقته من عم جلال؟

- هو الزفت القطران ده.

يقولها مكملًا نواحه: إحنا كنا رايحين نقلب الراجل في الأنتيكات، لكن هو من ساعة ما شاف الورق وحاجة لبسته ومابيبطلش هترفة في الكلام، وإنه لازم هيرجع ياخد باقي الورق من عند الراجل ده بس لما يلاقي الملاك.

يتدخل وليد متسائلًا: ملاك إيه؟ ملاك إيه ياض؟

يرد صارخًا: وأنا هعرف منين يا عم بقولك اتجنن من ساعة ما خاوى. عقله اتلحس وعاوز يلاقي ملاك. لكن والنعمة، ورحمة أبويا ماعرف هو فين. ولا بيدور على الملاك ده فين.

أضع زجاجة الفنيك جانبًا، وأتسند على وليد واقفًا، وأذهب إلى ركن بعيد عن جسد شهاب الملقى أرضًا ليتبعني وليد لأسأله هامسًا: أنت سمعت عن حد بيحضر ملاك قبل كده؟

- لا يا عم! ملاك إيه اللي يحضره استغفر الله العظيم!

ثم يسكت فجأة مفكرًا وهو يحك في جانب رأسه ثم يقول لي: بس ممكن.. هي مستبعدة يعني.. بس ممكن..

أنظر إليه مترقبًا فيقول: مش الشيطان كان في يوم ملاك؟ يكنش عاوز يحضر الشيطان؟

أشعر برأسي يدور، كل ذلك الحديث غير العقلاني يشعرني أنني أحلم أو أهلوس. لولا الألم الذي ينبض في كل أنحاء جسدي لأقسمت إن ذلك حلم لا ريب فيه.

أن أحيا حياة كتلك، في موقف كذلك يكون التصرف المنطقي الوحيد أن أستشير الشبح الذي يسكن عقلي.

أتمتم وأنا أعبث في جيبي بحثًا عن المشمة: أنا كده اتجننت.. وبكملة الجنان بقى.

تصل أصابعي للمشمة وأنا أقول لوليد: طب اعدل الكرسي بتاعه ولا حاجة لحسن يتخنق وهو ملوي على بوزه كده.

يهز رأسه ويذهب لتولي أمر شهاب، بينما أدير رأسي متمتمًا بصوت خافت: آ.. ليل؟.. هو الملايكة بتتحضر أو بتتسخر يعني؟

- لا.

يأتي على الفور صوتها، الذي صار بمثابة بلسم للروح.

- بس هم موجودين؟

أشعر بتردد لأقل من لحظة قبل أن تقول لي: يسخرهم الله لخدمة العباد على الأرض، وفي السماوات، لا حكم ولا سلطان عليهم لمخلوق.. فقط خالقهم.

- يعني الواد ده بيهذي، أو طه اتجنن فعلًا! ولا وليد معاه حق وهما بيتكلموا عن الشيطان؟

- لا، لا يتحدث عن الشيطان، ولكنه يبحث عن ملاك سقط.

أنظر خلفي لوليد الذي أعاد شهاب للوضع الرأسي، ويملأ له كوبًا من الماء.

فأقول له: ويل هقف برا في الهوا شوية.

ثم أخرج من السنترال إلى الشارع الهادئ وأسأل من فوري: ملاك سقط إزاي؟

- لم يكن إبليس وحده من سقط من رحمة الله، هناك أكثر من ملاك خرجوا من تحت رحمة الله كلهم هنا على الأرض. ليسوا ملائكة بالضبط، وليسوا شياطين. ينظرون حسابهم في يوم الدين. وللصدفة فإن قصتهم قد رويت في صحف إدريس.

- آه، لا ما اعتقدش صدفة كده أكيد، طب مذكور في الصحف هم فين؟ طه ممكن يكون بيدور عليهم فين؟

ترددت مرة أخرى، لم أعتد هذا التردد من ليل، قبل أن تقول: لا، بالتأكيد غير مذكور مكانهم الآن، ولكن يبدو أنه يحتاج لأكثر من شياطينه إذا كان يرغب في أن يحاول تكرار رحلة سيدنا إدريس إلى السماء، ويفتح بابًا من أبواب الجنة.

- طيب إزاي نعرف نوصله!ولا اللي جوه ده عارف حاجة عن مكانه، ولا أنا عارف ممكن أدور عليه فين..يعني كل ده مالوش لازمة..يعني تيتة ماتت على الفاضي..

علشان أنا كنت بطارد واحد مجنون، وحتى بوجودكم معايا وكل اللي قلتيهولي إنك حاسة إن في حاجة جاية وإن في حاجة أنا أقدر أعملها كان مجرد وهم..

طه اختفى و..

بعد لحظة صمت أضيف: أنا خسرت كل حاجة.

- طه سيأتي إليك.

تقولها بلهجة حزينة.

- تفتكري هييجي عشان يقتلني؟ ماعتقدش.. كان استناني بعد ما قتل جدتي وخلص، طه عارف إني أتفه من إن يكون ليا أي تأثير.

أشعر أن قدميّ تخذلاني فأجلس على الرصيف، ثم يأتي صوت ليل مرة أخرى: طه سيأتي من أجلك. حين يعرف أن لديك ما يبحث عنه.. حين يعرف أن بداخلك غايته.

ثالثنا ملاك يا خالد.. ملاك ساقط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أشعر بالارتياح وأنا أخبر جلال عما أخبرتني ليل به، ولكنه الشخص الوحيد - سوى طه- المطلع على صحف إدريس، بل هو أكثر علمًا من أي شخصٍ آخر.

فضلت ألا أشاركه أي معلومة عن ليل وطنطل، واحتفظت بقصة أن لطيش يسكنني، ولكن ليس وحده.

صمت طويل تلى حكايتي له بأن لطيش قد أسر لي بوجود ملاك ساقط في جسدي.

- مذهل! حقيقي مذهل!

متململًا في مقعدي أنظر حولي في أرجاء غرفة وليد التي أجلس فيها وحيدًا متشبثًا بالهاتف الأرضي كطوق نجاة، خافضًا من صوتي كي لا يتسرب الجنون الذي أتلوه لأي من أهل البيت.

- لو افترضنا إن.. إن ده حقيقي أو ممكن.. أو ممكن.. مش عارف.. هل ده ممكن أصلًا اللي أنا بقولهولك؟

دون حاجة لذلك يماثل جلال همسي وهو يرد: آه.. ممكن.. ممكن جدًّا! أنا كنت حاسس إن أنت مبهر!

أكاد أشعر بابتسامته التي تتسع، وقبل أن يكمل وأنا أشعر أن ابتسامته قد خفتت أقول: بس برضو ده معناه إن طه ده عنده معلومات ماكنتش متوقع إنها تبقى عنده. هو لا يزال مخبول، واللي بيحاول يعمله جنان، بس في معرفة ورا جنانه ده! وده سبب أدعى إننا نحاول نوقفه.

- قطعًا.

- طيب إزاي أقدر أتواصل مع الملاك؟

يتنهد جلال وهو يقول: هي دي المشكلة.. إن أنت عرفت بوجوده أصلًا دي معجزة في حد ذاتها. خصوصًا إن جن هو اللي ساعدك إنك تعرف المعلومة دي.

أعض على شفتي شاعرًا أن جلال يشير إلى أنه يعرف أني لست صريحًا معه تمامًا، لكني لا أقاطعه ولا أبدي اهتمامًا ليكمل هو: الملاك الساقط ده.. مش عارف أفهمهالك إزاي، بس هو مش موجود جواك بالظبط. أنت بالنسباله مجرد بوابة. دي غريبة طبعًا إنك بوابة لملاك ولجن في نفس الوقت.

أفكر: وديبوك أيضًا.

- فكر فيها إن هو في بُعد غير البُعد اللي إحنا فيه. بيشغل نفس المساحة، لكن المساحة اللي هو يشغلها بتخفى عنك، وعن أي مخلوق الحقيقة. لعنة الوارثين اللي صابتك خلتك تخش في مساحات شبه دي، لكن كملاك خرج من رحمة ربنا فالحل الوحيد علشان توصله إنك أنت كمان تخرج. أيًّا كان المطلوب علشان توصله هيكون كُفر بيِّن بيحكم على روحك بأسوأ درجات الجحيم. ممكن تبيع أخرتك وأبديتك علشان توصل لطه؟

استمر حديثي مع جلال أكثر من الساعة قبل أن أنهي المكالمة وأتناول المشمة سريعًا لأتحدث لليل لأسألها فورًا: أرجوكي قوليلي إن في حل تاني. أنا مش معرفه طبعًا إني بتكلم معاكي، وهو كان مستغرب إن الجن عرف بوجود الملاك، فده معناه إنك مختلفة، في حاجة ممكن تعمليها، رسالة تقدري توصليها...

كنت أخبرها بذلك وأنا متلاحق الأنفاس، وقد تملكني اليأس.

- لا، ما أخبرك به صحيح بشكل كبير.

قلت في ثورة: طب إزاي يعني؟! ده حاجة جوايا! زي ما بعرف أتكلم معاكي زي ما إنتي بتعرفي تتكلمي معايا زي ما بعرف أكلم...

ثم ابتلعت لساني قبل أن آتي بذكر «طنطل» عاليًا.

- كل ما تفكر فيه هو محدود بنظرتك للكون. هناك عوالمٍ محجوبة عنك بأمر الله، هناك خوافٍ تعيش بين خلاياك، أكوان تقوم وتفنى بين خفقتي فؤاد. مهما أنعم عليك بنعم وبركات؛ فإن لعقلك البشري حدودًا.

- إنتي شايفة إن اللي بيحصلي ده نعمة وبركة؟

تصمت للحظة قبل أن تقول لي: نعم، نعمة وبركة للكثيرين من حولك. ممن ستستطيع أن تساعد، وأن توقف شرًّا كطه.

- أهي قفلت يا ليل!.. ولا إنتي عايزاني فعلًا أترمي في جهنم علشان أوقف طه! أوقفه من إيه! من إنه يحاول يفتح بوابة الجنة! ده أهبل!

- خالد، أنا لا أعتقد أن طه يحاول فتح بابًا للجنة.

- يعني جلال غلطان؟

- أعتقد أن طه يحاول أن يفتح بوابة جهنم.

تقع المشمة من يدي لألتقطها بسرعة: جهنم إيه اللي بيفتح بوابته!

- فكر في الأمر، والدة طه حاولت الاستعانة بجدتك لتساعدها على الحمل، وحين رفضت، استطاعت أم طه أن تحمل عن طريق عمل سفلي. ما حدث في الأغلب أن طه هو ابن لجني عاشق، وموت زوجها كان أضحية لذلك الجنين. يفسر ذلك قدرات طه، ويجعلني أظن أن ما يحاول فعله هو لاستدعاء المزيد من الشياطين للأرض.

- فالمفروض أخش أنا النار! هل ده عدل!

- أعتقد أن هناك حلًّا آخر. فأنت لا تحتاج التواصل مع الملاك حقًّا. كل ما تحتاجه هو أن تخبر طه بوجود الملاك بداخلك، وهو سيحضر إليك بنفسه، وحينها...

أتنفس الصعداء مسلمًا ظهري للمقعد وأنا أقول: نجيبله العو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالطبع ستكون طريقة تواصلي مع طه عن طريق مواجهة في نهر دنس. كان يمكنني العودة إلى غرفة طه واختيار نهر من أنهار الدنس التي تفيض هناك، ولكنني قررت العودة لمنزلي لأدخل النهر الأكثر إظلامًا حيث كانت آخر لحظات جدتي. لا أعرف إن كان خوفًا مما قد يحدث لي في مواجهتنا، أم كون قلبي لا يطيق ثقل رؤية أمي وأبي.

أضع المفتاح على الطاولة وأقترب من منتصف الصالة.

المشمة.

عشر دقات.

برق.

أقف أمام باب الشقة القديمة مستحضرًا كل ما ملأ قلبي وفاض من كرهٍ لمن يقف في الجانب الآخر. تلك المرأة...

ثم أشعر بروحي تُنتزع من جسدي، وأعود لذاتي كخالد وسط بحر أكثر كثافة من الرماد المشتعل.

أقف نافضًا الرماد من على يديّ متأملًا طه الذي كان يقف أمامي ناظرًا لي بملل ليقول ببرود: أنت مازوخي يلا! ولا كنت بتكرهها أنت راخر وعاوز تشوفها وهي بتموت أكتر من مرة؟

أبتلع غصة تنامت في حلقي وأنا أقول: أنا عارف أنت عايز إيه. أنت مش عايز تفتح بوابة الجنة.

بالبرود نفسه يسأل: جنة إيه!

أستوعب أنه بالطبع لا يعرف نظرية جلال التي افترضناها في البداية.

فأتدارك سريعًا: أنت عايز تفتح باب لجهنم.

يزفر متململًا وهو يحك في لحيته الكثيفة وهو يقترب مني: أيوه أنت جاي نتصاحب! أنت مالك أنا عايز إيه!

تبدو المحادثة أصعب مما تخيلت، وأشعر أنه سيطردني من نهره الدنس في أي لحظة، فأقول في سرعة: مش مهم أنت عايز إيه، المهم إن أنت محتاج توصل لملاك.

تختفي نظرة الملل من وجهه ولكنه لا ينبس ببنت شفة.

فأكمل: في ملاك من اللي أنت بتدور عليهم موجود جوايا، لابسني مع الجني اللي لابسني، ماعرفش ده حصل إزاي ولا ليه بس هو موجود، تعالالي وشوف عايز منه إيه.

يطول الصمت.

- لو أنت مش مصدقني...

يقاطعني: هششش.. أسكت شوية. علشان كده إبتسام كانت واخداك عندها.

أردت أن أخبره أن جدتي لم تعرف شيئًا، ولكني آثرت الصمت.

- ماشي، نتقابل. لو حقيقي هنعرف، ولو فاكر نفسك صايع وعايز تنتقم نديك فرصتك برضو.

- أنا مستنيك لوحدي في شقة جدتي.

يبتسم ابتسامة ساخرة ثم يقول: لأ معلش هتعبك معايا شوية. نورني عند جلال العجوز. كده كده كان في حبة ورق عايز أخدهم من عنده، وأهو تبقى كل حاجة في مكان واحد ونخلص.

أسقط في يدي وأنا أشعر أني على وشك خسارة شخص آخر على يد هذا المعتوه.

- بس آاااا.. لو أنت بني آدم عاقل يعني، ممكن تلاقي نفسك بتفكر بالعقل كده وتبعد عن الشر وماتجيش، فأنا حابب أسخنك شوية.

أشعر بروحي تنتزع انتزاعًا وأرى الرماد يسقط عكسيًّا في اتجاه السماء، ثم في لحظة أجدني في ركن شقتي وأمامي تقف جدتي.

كان الأمر مختلفًا عن أي رؤية؛ فأنا أدري أني في جسد طه الآن، ولكن لا أملك الوصول لفيض أفكاره ولا مشاعره.

بالضبط كما حدث حين تملكني طنطل. مجرد مشاهد، ولكن تلك المرة مشاهد على ذكرى مميتة.

أرى مشهدًا ثابتًا لجدتي في مواجهة طه، وأسمع كلمات تعويذته تتكرر، وأراه يخرسها بكلمات عن عهد، وتتكرر الرؤية، وأنا لا أقدر حتى على الإشاحة ببصري.

أتأمل كل التفاصيل، ولا أفهم حقًّا.. لا أفهم كيف استطاع ذلك النجس أن يشل لسان جدتي.

كيف استطاع التفوق عليها؟!.. أي دين استحق؟

تتكرر الرؤية ومعها تتكرر الكلمات، ومرة أخرى يقول بلسانه المسموم: كل دين لازم يتوفى يا حاجة إبتسام.. وأنا اللي ملكت دينك وأهو اتوفى، والكلمة اللي إنتي مديونة بيها اتاخدت.

أصرخ قانطًا: دين إيه؟.. دين إيه؟

ولدهشتي يتوقف طه عن الحديث ويلتفت لي ليقول: سؤال مهم.. حقك تعرف إجابته.

وتنسحب روحي مرة أخرى لأجد نفسي في صومعة جدتي، في ركن من الأركان كالمصلوب.

لم تكن هناك إضاءة سوى بضع شموع رصت أمام مجلس جدتي وجمر مشتعل في مبخرة، وفي آخر الغرفة يمكنني تمييز شكلين لامرأة وطفل.. أذلك جارنا بودي وأمه؟ لا ليس هو.. إن بودي أكبر من ذلك بقليل.

وحين أتأمل ملامح جدتي ألاحظ أنها أصغر في العمر.

- الواد ده شر...

يأتي صوت جدتي من مكانها.

- الواد ده موت وهلاك.. ده ملعون ومافيش فيه رجا، لازم تبعدوه.

من الجانب الآخر يأتي بكاء ونهنهة من المرأة.

أحاول أن أخترق الظلام لأرى الطفل، لا بد أن ذلك طه، ولكن ألم تخبرني أمي أن جدتي لم تقابل طه يومًا! لا بد أنها كانت تجهل هذا اللقاء.

ثم يأتي صوت بشع، وكأنه حيوان يحاول أن يتحدث لغة البشر، ولهولي فإن هذا الصوت قادم من الظلام من الصبي الصغير.

لا أستطيع أن أفهم الحشرجات التي صدرت منه ولكن يبدو أن جدتي تستطيع.

ترد بقوة: ده يكون تمنه روحك وروح عشيرتك كلها يا صعلوك، الوارثين مابيتساوموش. أحرقك أنت والواد اللي أنت لبسه، مش هيحميك.

ليأتي صراخ المرأة من الظلام فجأة: لا يا ماما أبوس إيدك.. ماتأذيش خالد!

أحتاج لثانية ودقتي قلب لأفهم، وأشعر أن روحي الهائمة تحررت للحظات لأقترب، وأتأمل من حجبهم عني الظلام.

كانت تلك أمي.. وكان ذلك الطفل أنا، الذي بدأ يضحك بقهقهة شيطانية، وأرى دموع جذل في عينيه، قائلًا بحشرجته: يعني من دمك.. يبقى آخد منك عهد يا في التو هنهيه.

لا.. لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيًّا. لا بد أن طه ذلك الملعون يحاول أن يعبث بي.

لا...

موليًا ظهري لجدتي أتأمل في كتلة البشاعة التي كانت جسدي وأنا طفل، وفي دموع أمي، وفي خطوات جدتي التي تأتي بتؤدة من خلفي.

ثم تقف خلف روحي الهائمة تمامًا وأمام جسدي المسكون الصغير قبل أن تسأل: وعايز إيه تمن لخلاصه منك يا ملعون؟

وقبل أن ينطقها عرفت الثمن...

- كلمة.. كلمة من على لسانك.. تصبح دين عليكي آخدها أنا أو غيري...

لا.. لم يقتلها طه.. بل فعلت أنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تهتز عربة المترو وكأنما تهدهدني وتواسيني في ألمي ورجفة جسدي.

لم تكن كل جروح عراكي مع شهاب قد طابت بعد، ولكن ما فعله بي طه في تلك الرؤية كان أشد إيلامًا.

أود القول إن رجفة الجسد تلك هي غضب مستعر، ولكنها أيضًا خوف وألم على مصير جدتي وخيبتها فيّ.

لم أكن موجودًا لأذود عنها، وكنت سببًا في دينٍ قتلها.. ليتني لم أكن موجودًا قط.

ليتني لم أولد.

علقت في رؤية آخر لحظاتها، لما شعرت أنه أيام. لم يكتفِ طه بإيذائي وأنا أراها تموت وأنا عاجز، بل كرر الرؤية عشرات المرات في جحيم شخصي صنعه من أجلي قبل أن يطلق سراحي.

غارقًا في دموعي ورجفتي؛ انطلقت من فوري متجهًا لبيت جلال.

تجنبت أن أتلمس المشمة، فلم أكن لأقوى الآن على سؤالها عما شاهدته في الرؤية، وعمن كان يتلبسني حينها.

لا أحتاج إلى تفسير ولا أحتاج إلى تطييب خاطر، أحتاج إلى أن أظل غاضبًا، خائفًا، يجري الأدرينالين في عروقي مجرى الدم.

تزداد نبضات قلبي مع انطلاقة اسم كل محطة. أكاد لا أقوى أن أقف من مكاني حين تأتي محطة المعادي؛ ولكني أفعلها خطوة تلو الأخرى.. لا أفكر سوى في الخطوة التالية، وأسعد بنصري أني انتهيت من الخطوة التي سبقتها.

لا آخذ سيارة أجرة، لن أتحمل توتر الجلوس مرة أخرى.

خطوة تلو الأخرى تجاه منزل جلال.. خطوة تلو الأخرى تتحول إلى هرولة، وتنتهي بركضي كالمجنون من أجل نهاية.. فلينته كل هذا.. فلأوقف طه أو أموت.

حين أصل إلى باب شقة جلال يكون قلبي قد أوشك على الوثب من فمي.

أتوقف للحظات وألتقط أنفاسي قبل الضغط على الجرس، ولكن أجد أن الباب غير مسكر. أتلمسه ليُفتح بدفعة بسيطة.

يا إلهي! أشعر وكأنني على وشك الدخول في رؤية مقتل جدتي مرة أخرى، أن يكون قتل جلال بالفعل.

أشعر بخرشفة تحت قدمي مع أول خطواتي داخل شقة جلال.

أجد أنني خطوت على أكياس بلاستيكية مقطعة انتشرت في أرجاء المنزل.

أجد جلال جالسًا على مقعد السفرة فأهدأ قليلًا قبل أن يأتي صوت طه، قادمًا من المطبخ: حمد لله على السلامة. اقعد جنبه.

أتخذ مقعدي بجانب العجوز، مخرجًا المشمة من جيبي واضعًا إياها في قبضتي، ثم أريح يدي على طاولة السفرة.

أحاول أن أنظم أنفاسي وأنا أمسح بيمناي العرق المتصبب من جبيني.

يخرج طه من المطبخ حاملًا كوبًا من الشاي، ويجلس في مواجهتنا.

- ها.. احكيلي...

لا أخفي غضبي تلك المرة وأنا أنظر له في عينيه.

- لأ أنا مش جاي أحكي، إحنا مش هنتصاحب زي ما أنت قلت.

وقفت فجأة متقدمًا ناحيته وقلت بكل الكره والمقت بداخلي: أنا جاي وجايبلك العو.

تمر لحظتان وطه يتأملني قبل أن يضع كوب الشاي بجانبه، ثم يقول: أنت أهبل يا حبيبي!

أنقل المشمة في سرعة إلى يدي اليمنى وأنا أتمتم: العو.. العو..

ثم أخفت صوتي وأنا أقول: ليل! في إيه؟

يقف طه متقدمًا مني ثم يمسك برسغي الأيمن وبيمناه يطبق على رقبتي دافعًا إياي للخلف، وأشعر بفارق رهيب في القوة بيننا، وبالخياطة تنفتح. لتنفك قبضتي مسقطة المشمة على الأرض.

يواصل طه دفعي حتى أجلس مرة أخرى على كرسي السفرة، ثم ينحني ملتقطًا المشمة متمعنًا فيها.

- آه أنت بتحاول تحضَّر! لأ عمك جلال صايع برضو.. كان عامل حسابه إن أنا ممكن أجيله.. مخدتش بالك أنت من اللي مرمي على الأرض.

أتأمل مرة أخرى الأكياس المقطعة المتناثرة على الأرض، لأبدأ في الاستيعاب أن تلك ليست أكياسًا.

- جلد تعابين، والحيطان كلها تحت الدهان ده متروسة تعاويذ. بس المشكلة إن أنا مش محضر.. ولا مخاوي.. فكل اللي عمله ده مالوش لزمة.. يعني ليه لازمة بالنسبالك طبعًا.

لا أعرف هل يجب علي أن أكون نادمًا الآن أني لم أشارك مع جلال ما توصلت له مع ليل عن كون طه نصف إنسي ونصف جني؟ وأن كل ما يفعله يفعله بنفسه.. لا يسخر أحدًا ولا يستدعي أحدًا.

لعبت كل أوراقي وخسرت، وأنا الآن تحت رحمة هذا الوغد.

أنظر حولي باحثًا عن أي شيء يمكن استخدامه كسلاح ولكن لا شيء.

ثم يأتي صوت طه: بص يابني، ست كلمات هتقولهم والسابعة هينطقها الملاك بلسانه. أنت مالكش لزمة ومش هيحصلك حاجة. اقرا الكلمات دول...

يخرج من جيبه ورقة مهترئة كتب عليها بحبر أسود.

لا أمد يدي لتناولها فيضعها أمامي وهو يزفر في نفاد صبر وهو يقول: اخلص يا خالد دول كام كلمة مالهمش معنى.

كانت الكلمات مكتوبة بحروف عربية، ولكن لم تكن الكلمات ذاتها بالعربية. أتأملها قبل أن أسأل بصوتٍ خافت: وبعد ما أقرا الكلمات دي.. مش هبقى كفرت؟ وتبقى نهايتي في جهنم؟

- إيه ده! هو أنت كنت فاكر إن حد منكم بيورد على جنة! كده كده أنت رايح جهنم، على الأقل تبقى عملتلك حاجة مفيدة. وعلى فكرة، بعد ما أخلص حواري مع الملاك مش هتبقى محتاج البتاعة دي.

يلقي بالمشمة في الهواء لتسقط مرة أخرى في يده.

- هتقدر تسخر الجن بفكرة، وتعيش ملك لحد ما تموت، ده غير إنك هتطول في عمرك ده آلاف السنين. صدقني أنت مصلحتك في الكلمتين دول.. كله مكسب مافيش خسارة.

- أنت قتلت جدتي يا طه.

- جدتك السبب في كل حاجة حصلتلي يا خالد.. وبعدين ماتزعلش أنا رايح النار برضو في الآخر، قولي ربنا يسامحك واقرا الكلام.

- لأ...

- هو إيه اللي لأ!

أحاول أن ألقي بالورقة بعيدًا وتلتقي عيناي بعيني جلال اللتين لا أرى فيهما نظرة خوف، بل نظرة فضول، كأنه هو الآخر يريدني أن أقرأ تلك الكلمات ليرى ما الذي سيحدث.

أشعر باللطمة قبل أن أستوعب أني وقعت أرضًا.

طنين يعلو في أذني، وجلد الثعابين يلتصق بوجهي فأشعر باشمئزاز غريزي لا مكان له فيما يحدث الآن.

أنزعه من وجهي وأمسح وجهي في هيستيريا ليوجه لي طه لطمة أخرى ويقول: أنت فاهم إيه اللي هيحصل؟ أنت فاهم إني هسيبك تروح مثلًا؟! أنا بعد ما أقتل الراجل الطيب ده واسلخك حي، هروح لصاحبك اللي أنت كنت مستخبي عنده وأقطعه هو وعيلته، وأطلع على أبوك وأمك وأعلقهم وأصفي دمهم، وكل يوم هموت حد من عيلتك ومن معارفك أو حتى حد قابلته في الشارع بالصدفة، إن شاله اخلص على البلد كلها، وهبقى متأكد إنك مسلوخ وعايش، وشايفهم وسامعهم وهما بيموتوا، وهكسر عضمة عضمة في جسمك، وهعيشك موتهم ألف مرة، وفي النهاية هتنطق.

لم أكن أفضل الأشخاص احتمالًا للألم؛ فالقطع الذي ينزف الآن، والجروح التي لا تزال تلتئم، والكدمات والردود في أنحاء جسدي هي أقصى طاقتي في تحمل الألم. ألا يغفر لي ربي إن نطقت بتلك الكلمات مجبرًا؟ أم تظل جهنم مصيري؟ أيغفر لي إذًا إن استطعت المراوغة والقفز من الشباك ربما؟ أم تلك خطيئة أخرى تلقي بي في جهنم؟

أكل الطرق تؤدي إلى هناك؟ أهذا قدري حقًّا؟

ركلة في معدتي تشعرني بوجوب أن يغيب وعيي الآن، ولكني أظل حاضرًا متألمًا.

- أنت مش فاهم أنت بتعاند في إيه. أنت اللي سعيت ورايا وجيت.

ثم يتناول طه كوب الشاي المغلي ليلقيه في وجهي.

أصرخ من الألم شاعرًا أن عقلي يُسلب مني. لا أتمكن من النطق بشيء سوى الصراخ، ثم المزيد من الصراخ.

أمسك بيد طه متشبثًا بقبضته، محاولًا أن أخلص المشمة منها؛ فيتركها بسهولة.

- عايز إيه؟ عايز دي! خدها!

أمسك بها وأقربها من فمي وأنا أبكي صارخًا: ليل.. ماتسيبينيش يا ليل.. الحقيني أنا مش عارف أعمل إيه.. ليل...

لطمة أخرى على وجهي، تطير المشمة من يدي.

- مافيش حد هيلحقك غير إنك تجيب الملاك ده يكلمني، فاقرا أم الكلام وخلص نفسك.

وينهي حديثه بأن يدهس قصبة ساقي لتتعالى صرخاتي مرة أخرى وأنا أقول: يا رب.

ينظر لي طه هازًّا رأسه في خيبة أمل وهو يقول: ربنا مابيسمعش اللي زينا.

أحاول أن أزحف في اتجاه المشمة، ولكن تلك المرة يركلها طه بعيدًا، ويجلس القرفصاء مناولًا إياي الورقة.

- هتقرا ولا نبدأ السلخ؟ أنا كل ده بلاعبك؟

أغمض عينيّ الممتلئتين بالدموع وأنا أتناول الورقة.

- يلا يا خالد.

يأتيني صوت طه.

- الملاك بس هو اللي ممكن ينقذك.

وإذا كان بإمكان ذلك الملاك إنقاذي، فما الذي يمنعه! أليس مطلعًا على أحوال الوعاء الذي يستخدمه كبوابة؟! أم أن بإمكانه أن يجد بوابات أخرى فلا أعني بالنسبة له شيئًا؟

أخبرتني جدتي أن صوتي مسموع، فلمَ لا يسمعني الآن؟

أتمنعه تلك التعاويذ أيضًا؟ أم يتنظر هو الآخر أن أنطق بتلك الكلمات؟

أهذا ما تريده مني؟ الكفر؟ أخرج من رحمة الله فأنال رحمتك؟ أهذا هو الثمن العادل؟ أفتح عينيّ وأنظر للورقة في يدي وأهم بقراءة الكلمات.

شرارة صغيرة تتحول للهب في طرف الورقة وتبدأ في الاحتراق، وأشعر بكل شيء يتوقف، وصوت هادر يملأ وجداني بكلمة واحدة: لا...

يرتعش جسدي طافيًا من على الأرض.

يتقهقر طه للوراء، ويقف جلال من مقعده الذي كان مسمرًا عليه، وجسدي يستمر في الارتفاع.

لهب وشرارات ترسم رموزًا على الحائط، والصوت الهادر يأتي بكلمات واضحة لا لبس فيها.

«تحتاج أن تفهم أن حضرتي ببهائي هنا والآن هو مشيئتي وحدي، لم يأتِ بي لفظ جرى على لسانك، ولا فكرة لمعت في وجدانك. وحين أحضر.. فأنا المالك والملك لهذا الجسد».

أشعر برأسي يدور يمينًا ويسارًا وعينيّ يستخدمها غيري قبل أن يكمل: «وإن شئت.. لتلك الأرض».

لم يكن الأمر كما كان مع طنطل. أنا أشعر بكل شيء.. أشعر بكل.. كل شيء...

أشعر بنسمات الهواء، أشم رائحة الأمطار التي ستأتي بعد ساعات.. أسمع الشهب في السماء.. أرى جلال يركض خارجًا من المنزل.. أسمع وليد يسأل والدته «هو خالد ماقلش رايح فين؟»

أرى دموع أمي وهي تتمتم آيات قرآن على روح جدتي، وأرى طه.. أراه حقًا.. أرى الشيطان بين خلاياه، أرى دمًا لا يشبه دم الإنسان، وأرى عينيه، كيف كان هناك - ولأول مرة- الخوف.

تمتد يد الجسد لترفع طه من رقبته عاليًا لنطفو سويًّا وكلمات تجري على لساني: «حصلت على رجائك، تحدث يا ملعون».

كان طه يرتجف وهو يبحث عن الكلمات الصحيحة.

- أنا.. أنا عايز أرجع.. أ.. أنا كل اللي عايزه إني أرجع.

- «تعود إلى أين؟».

- أنا مكاني مش هنا وعمره ما كان هنا، أنا عايز أرجع جهنم. أنا مش عايز أجيب شياطين ولا أعمل حاجة، أنا كل اللي عايزه إني أرجع، وهديك الصحف كلها بعدها، تقدر ترجع أنت كمان الجنة.

يُترك جسد طه ليسقط أرضًا.

- «أتظن تعويذة أو سحرًا يعيداني لرحمة الملك الجبار؟! من تظن نفسك يا لعين!.. كل هذا الدنس.. الفساد.. من أجل لقاء بذويك في الجحيم؟!».

- أنا كنت..

ولكن قبل أن يكمل طه جملته: «يمكن تدبير ذلك بطريقة أخرى».

ينطلق جسدي في الهواء حاملًا طه مخترقين زجاج النافذة لنظل لحظات في الهواء، قبل أن تترك يدي لطه ويسقط على الأسفلت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المطهر

صحراء بيضاء تمتد في كل الاتجاهات حتى تؤذي عيني وعقلي.

كل هذا الأبيض لا أستطيع حتى استيعابه.

أحاول أن أغمض عينيّ فلا أستطيع، ولا يمكنني حتى أن أذود عنها بكفي.

فأنا لست موجودًا.. هل أنا ميت؟

لا..

يأتي الصوت من حولي، لكني لا أستطيع أن أحدد من أي مكان بالضبط حتى يأتي مرة ثانية.

- «لم تمت بعد».

- أنت مين؟

- «يمكنك أن تدعوني إسماعيل».

- ده اسمك؟ إسماعيل؟

ثم أستوعب: أنت.. أ... الملاك؟

- «بالطبع ليس اسمي، لا أحد يثق بواحد من الوارثين كفاية ليشاركه اسمه».

أبدأ الاستيعاب بأن الصوت يأتي من داخلي، ولكن كيف يكون لي داخل دون أن يكون لي جسد؟

- «ولكني أعطيك اسمًا تدعوني به، وليكن الآن هو إسماعيل».

أنتبه لكلمات محدثي مرة أخرى شاكرًا أن التركيز في الكلمات سيرحمني من محاولة استيعاب كينونتي الآن.

- طه حصله إيه؟

- «نال رجاءه، سيذهب إلى جهنم ويلتقي بأبيه، وأظن أن أمه - هي الأخرى- ستكون بانتظاره».

أتساءل: طب هو معملش كده ليه من الأول! كان ينتحر ويريحنا كلنا!

- هل تعلم كم عليه الانتظار كي يذهب إلى جهنم؟

- لأ ماعرفش، قد إيه؟

- «أنا أيضًا لا أعرف، الله وحده يعلم ميعاد يوم الحساب، وحتى لو كان غدًا؛ فسيذهب إلى جهنم بعد أن ينتهي كل شيء، بعد أن تنتهي كل ألاعيب الشياطين، وتفنى الدنيا. الجنة والنار قد خلقتا بالفعل، لقد رغب بأن يكون هناك الآن، ليمكر مكره مع الشياطين».

- ودلوقتي إيه اللي هيحصل؟

- «الآن تحمد الله أني عبرت من أجلك. وأني منعتك عن الكلمات الست. لن يتكرر ذلك، فاليوم كان آخر عهدنا، وصدقني أنت لا ترجو بي لقاءً بعد اليوم».

- طب...

فجأة حدث ما لم يكن أظنه ممكنًا.. ازداد نصوع البياض من حولي، وفتحت عينيّ...

عندما عاد لي وعيي وجدت نفسي في سريري.

كان وليد يقف فوق طاولة صغيرة خالعًا ستائر الغرفة التي احتفظت بأكوام من الأتربة منذ فجر التاريخ، يفكها ساعلًا وهو يناولها إلى والدة ندى التي وقفت ممسكة بأطرافها.

آخر ما أتذكره هو أنني عدت إلى شقتي، واتصلت بوليد، ثم فقدت الوعي.

أبحث في منامتي سريعًا عن المشمة، ولا أجدها.

أتجه كالملسوع إلى وليد سائلًا إياه: وليد أنت اللي غيرتلي هدومي؟

دون أن يرفع عينيه من على الستارة: يا عم قول صباح الخير الأول. أيوه ماتخفش ماصورتكش.

أتجاهل محاولته للمزاح وأقول: طب رميت الهدوم فين؟

يأتي صوت ندى من خلفي: غسلنالك كل حاجة ماتقلقش.

تنظر والدتها وتقول: حمد لله على سلامتك يا حبيبي.

أهز رأسي محاولًا رسم ابتسامة على وجهي وعقلي لا يزال مشغولًا: ربنا يخليكي يا ندى والله تعبتك معايا، بس كان في حاجات في الجيب.

- ماتخفش حطيتلك كل الحاجة على السفرة.

يقول وليد: مسم.. ست بيت شاطرة.

أتجاهله لألقي نظرة على السفرة لأجد المشمة.

أقترب لإمساكها ثم تتردد يدي للحظات متذكرًا آخر مرة أمسكت بالمشمة، وكيف انقطعت صلتي بليل وطنطل مهما ناديتهم. أكان ذلك ليلة أمس؟

يقطع أفكاري صوت ندى: أنا لقيت صندوق مليان من البتاع ده.

ألتفت لأجدها ممسكة بعبوة المشروب الرياضي.

فيقول وليد: أنا شربت منه واحد الصبح، أنت بتستحمل تشربه إزاي؟

أتناول منها عبوة المشروب متمتمًا بكلمات شكر، لأضعه على الطاولة بجوار المشمة.

أذلك حقًّا ما أريده؟ إعادة التواصل مع ليل وطنطل؟

كنت أسعى لأن أعود لأحضان عائلتي ففقدت عائلتي الوحيدة الحقيقة.

أتأمل وليد ومحاولته خلق حديث مع ندى، ونظرات والدة ندى الضاحكة.

ربما عوضني الله بعائلة اختارت أن تكون معي، ولا يستحق أي شيء أن أعرضهم لأي خطر.

أتناول عبوة المشروب، وأهم بفتحها لتأتي طرقات على الباب.

أفتح الباب لأجد شابًّا يقاربني في السن مقطوع الأنفاس زائغ العين يسألني بلهفة: الحجة إبتسام موجودة؟

أتنهد قائلًا: لا تعيش أنت، الحجة إبتسام اتوفت.

تتسع عيناه ويزداد هلعه وهو يمسك بقميص منامتي: يا نهار أسود.. يا نهار أسود.. دي كانت آخر أمل. عفاريت حارة المشنوقين هيموتوني.

أمسك بيديه مهدئًا: حارة مشنوقين إيه فهمني بس!

- لعنة واتلعنتها وماليش ذنب فيها.. والله ما ليا ذنب.

يجذب انتباهي شنطة الظهر التي يحملها، كان فيها تموج غريب.. تموج أعرفه جيدًا.. نهر دَنِس.

بالفعل يبدو أنه شخص قد مسه عمل شيطاني، هليستحق ذلك الغريب الذي التقيته للتو أن أخاطر بما اكتسبته؟.

نظرة أخرى لعينه وهلعه...

- طب اتفضل جوة، استريح وأنا هجيلك.

أضع المشروب الرياضي على الطاولة، وأنظر إلى المشمة مرة أخرى داعيًا الله ألا تكون صلتي عن ليل قد انقطعت للأبد.

آخذ نفسًا عميقًا قبل أن أتناولها متمتمًا بصوت خافت: ليل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الخاتمة

- أنا برضو مش فاهم أنت عرفته مكان شهاب ليه؟

ينظر جلال للمتحدث مناولًا إياه السكين، ثم يخلع القفاز البلاستيكي الطويل الغارق في الدماء مشعلًا سيجارة قبل أن يجيبه: واحد تايه في الصحرا، وبعد أيام من التوهان والعطش هيقتله ومفيش غير الرمل والحجارة؛ ظهرله غريب خده من إيده لبركة ميه صغيرة تبان للتايه سراب، شرب وارتوى وسأل الغريب هو مين؟ الغريب ابتسم وقاله أنا الشيطان. سأله ولما أنت الشيطان ليه نجدتني وسقيتني؟ قاله الشيطان عشان أنت كنت فقدت الأمل لكن دلوقتي هترجع تدور على بركة ميه تانية في كل سراب. واختفى الشيطان وضحكته لسه متعلقة في ودن كل اللي رجعله الأمل. خالد كان فقد الأمل...

يضع السيجارة بين شفتيه معيدًا القفازات الغارقة في الدماء مرة أخرى ومادًّا يده ليتناول السكين ليقطع جزءًا آخر من جثة طه وهو يقول: وخالد وملاكه يغنونا عن طه دلوقتي في فتح البوابة.

ثم تتسع ابتسامته وهو يكمل: بس طه بردو لحم الجن بتاعه غالي، ماخسَّرش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم الجزء الأول

على لقاء في الجزء الثاني

«جنوب المطهر»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

يمكنك أن تلوم أو تشكر كل هؤلاء على هذه الرواية

الأديبة والزوجة الداعمة «ضحى صلاح» لم تتركني لإحباطاتي.

الصديق الكاتب المخلص «محمد عصمت» والكاتبة المميزة «ميرنا المهدي» اللذان أصرا على أن أنهي العمل ودعماني مع كل حرف ولم يبخلا بوقتيهما.

وشكر كبير أو لوم - حسب استمتاعك بالرواية- لزملاء العمل «رنا طارق» النشيطة والتي تحمل الشركة على عاتقها.

و«زياد إسماعيل» الفنان الموهوب الذي طالما أنقذني في اللحظات الحرجة.

وشكرا على صداقة «محمد جميل ونيفين التهامي» كل الأحلام التي سنحققها معا.

والشكر الدائم أديب الديستوبيا «أحمد المهدي» القريب من قلبي دائما.

وإلى القراء الأعزاء الذين لم يبخلوا بدعمهم.

بسنت هاني

هبة الشوربجي

فاطمة أحمد جلال

شيمو كساب

وحازم وليد (الذي تأخر الجزء الثاني من زراد بسببه)

أحبكم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

حتويات..

عن الرواية..

الإهداء

تمهيد

-١-

-٢-

-٣-

-٤-

الخاتمة

يمكنك أن تلوم أو تشكر كل هؤلاء على هذه الرواية